قضايا ومناهج

بدر الحسن القاسمي

(نائب رئيس مجمع الفقه الإسلامي الهند)

مؤسسة إيفا للطبع والنشر – نيودلهي

حقوق الطبع محفوظة

١٤٣٥هـ ـــــــ ٢٠١٤م

مؤسسة إيفا للطبع والنشر

١٦١-ايف، بيسمنت، ص. ب.: ٩٧٠٨

جامعة نغر، نيو دلهي-١١٠٠٢٥

هاتف: (٠٠٩١-١١-٢٦٩٨١٣٢٧)

الموقع: www.ifapublications.com

البريد الإلكتروني: ifapublication@gmail.com

قضايا ومناهج

بسم الله الرحمن الرحيم

نحو تحقيق وحدة الأمة الإسلامية

الأخوة الإسلامية أساس لتحقيق التضامن الإسلامي:

إن الإسلام يربط المسلمين برباط عقائدي وثيق ويقيم بين كافة اتباعه علاقة "الأخوة الإيمانية" تنصهر فيها كافة الأعراق والأجناس وينخرط في عقدها كل من نطق بالشهادتين مهما تباعدت البلاد والأقطار وتناءت الديار والأمصار.

يقول الله عزوجل: (إنّما المؤمنون إخوةٌ)[1]

ويقول: (إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون)[2]

ويقول النبي صلى الله عليه وسلم:

"إن المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا- وشبك بين أصابعه"[3]

"مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد إذا

---

[1]- سورة الحجرات: ١٠.

[2]- سورة الأنبياء: ٩٢.

[3]- رواه البخاري ومسلم.

اشتكى منه عضو تداعي له سائر الجسد بالسهر والحمى"[1]

فالمسلمون جميعا كأغصان شجرة واحدة انبثقت من أصل واحد وسقيت من معين واحد فلا فرق بين أسود و أحمر ولا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى وسمّو الروح وكرم الأخلاق.

وقد حث الإسلام' المسلمين على توحيد الصف وجمع الكلمة ومنعهم من التفرق والشقاق ولقد أمر الله سبحانه وتعالى المسلمين قائلا:

(واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرّقوا واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداءً فألّف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً)[2]

وقد روى الإمام مسلم رحمه الله في صحيحه عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه: أن رجلا سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم: أي المسلمين خير؟ قال: "من سلم المسلمون من لسانه ويده"

ففيه الحث على الكف عما يؤذى المسلمين من قول أو فعل، وبمباشرة أو تسبب وفيه الحث على الإمساك عن احتقارهم كما أن فيه الحث على تآلف قلوب المسلمين واجتماع كلمتهم

---

[1]- رواه البخاري ومسلم.

[2]- سورة آل عمران: ١٠٣.

واستجلاب ما يحقق ذلك.

يقول القاضي عياض رحمه الله: والألفة إحدى فرائض الدين وأركان الشريعة ونظام شمل الإسلام.

وفي حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا ثم شبك بين أصابعه"[1]

قال الإمام النووي رحمه الله: هذا الحديث صريح في تعظيم حقوق المسلمين بعضهم على بعض، وحثهم على التراحم والملاطفة والتعاضد في غير إثم ولا مكروه[2].

ويقول المناوي: المراد: أن بعض المؤمنين لبعض كالبنيان أي الحائط لا يتقوى في أمر دينه ودنياه إلا بمعونة أخيه كما ان بعض البنيان يقوي ببعضه ثم شبك بين أصابعه تشبيها لتعاضد المؤمنين بعضهم ببعض كما ان البنيان الممسك بعضه ببعض يشد بعضه بعضا[3].

يقول الإمام الغزالي رحمه الله: إن الألفة ثمرة حسن الخلق،

---

[1]- متفق عليه.

[2]- شرح صحيح مسلم ١٣٩/١٦.

[3]- فيض القدير ٢٥٢/٦.

والتفرق ثمرة سوء الخلق فحسن الخلق يوجب التحابب والتآلف والتوافق، وسوء الخلق يثمر التباغض والتحاسد والتدابر[1].

وقد قيل قديما: إتباع الأهواء يفرق كما أن الحب والإخاء يجمع وان الاتحاد قوة والتفرق وهن وضعف، وان سبيل الله واحدة وسبل الشيطان متفرقة فمن تبعها فقد ضل وغوى.

أما ما يتعلق بطعن العلماء بعضهم في بعض فقد عقد الإمام ابن عبد البر في كتابه النافع: "جامع بيان العلم" باباً في حكم قول العلماء بعضهم في بعض بدأ فيه بحديث الزبير رضي الله عنه: دبّ إليكم داء الأمم قبلكم: الحسد والبغضاء.

وروي بسنده عن ابن عباس رضي الله عنه أنه قال: استمعوا علم العلماء ولا تصدقوا بعضهم على بعض فوالذي نفسي بيده لهم أشد تغايرا من التيوس في زروبها.

وعن مالك بن دينار: يؤخذ بقول العلماء والقراء في كل شيء إلا قول بعضهم في بعض.

بل نقل عن ابن وهب: أنه لا يجوز شهادة القارئ على القارئ يعني العلماء لأنهم أشد الناس تحاسدا وتباغضا.

---

[1]- إحياء علوم الدين ١/١٨١.

ومن هنا قيل إنه لا يسمع كلام الأقران بعضهم في بعض[1].

وهناك نصوص كثيرة تحث على التضامن والتعاون وتمنع من الفرقة والاختلاف منها ما روي عن عبد الله رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لا يحل دم امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله إلا بإحدى ثلاث: الثيب الزاني والنفس بالنفس والتارك لدينه المفارق للجماعة"[2]

وقد روت عائشة رضي الله عنها قالت: سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول: "الأرواح جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف"[3]

وعن جابر رضي الله عنه قال: سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول: "إن الشيطان قد ائس أن يعبده المصلون في جزيرة العرب ولكن في التحريش بينهم"[4]

والتحريش بينهم بالخصومات والشحناء والحروب والفتن وغيرها . وقد روي عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى:

---

[1]- راجع الرفع والتكميل صـ ٢٥٨- ٢٧٦.

[2]- رواه البخاري صـ ٧٨- ٦٨، ومسلم صـ ١٦٧٧.

[3]- رواه البخاري رقم ٣٣٣٦.

[4]- رواه مسلم رقم ٢٨١٢.

(ولا تتّبعوا السُبل فتفرّق بكم عن سبيله)[1] وفي قوله تعـــالى: (أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه)[2] قال: أمر الله تعالى المؤمنين بالجماعة ونهاهم عن الاختلاف والتفرقة.

الذين دخلوا في الإسلام أصبحوا إخوانا فهم أولياء بعضـــهم بعضا لا يصدهم عن ذلك اختلاف أنساب وتباعد مواطن وقـــد امتن الله عليهم بتغيير أحوالهم من أشنع حالة إلى أحسنها من حالة العداوة والتناحر والتقاتل إلى الأخوة والتضامن.

وإن الأخوة الإسلامية التي يربط بها الإسلام أتباعه من مظاهرها وحقوقها:

- أن يحب المسلم لأخيه ما يحب لنفسه .
- وأن يبتعد عن أسباب التنازع والفرقة .
- و أن لا يذله ولا يسلمه لمن يخذ له .
- أن يدافع عن ماله وعرضه .
- أن يحمل تصرفاته على حسن النية .

ومن فوائد هذه الأخوة:

- الترابط والتماسك في المجتمع الإسلامي .

---

[1]- سورة الأنعام: ١٥٣.

[2]- سورة الشورى: ١٣.

- تحقيق التوازن الإجتماعي .
- توفير مناخ مناسب للعلاقات الإجتماعية .
- الحث على الإبداع والابتكار .
- مواجهة المشكلات بالتعاضد والتعاون .
- تحقيق التكافل الاجتماعي بين أفراد المجتمع .

وإن توحيد صف المسلمين وجمع كلمتهم ورصّ صفوفهم واجب ديني وفريضة شرعية.

فقد روي الإمام مسلم رحمه الله بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن الله يرضى لكم ثلاثا ويكره لكم ثلاثا فيرضى لكم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئا وأن تعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا ويكره لكم: قيل وقال، وكثرة السؤال، وإضاعة المال".

والمراد من الاعتصام بحبل الله هو التمسك بعهده واتباع كتابه العزيز وإقامة حروفه وحدوده والتأدب بأدبه والمراد من عدم التفرق لزوم جماعة المسلمين وتعاون بعضهم مع بعض وهي من قواعد الإسلام، وان التفرق مذموم.

وقد تجلت مظاهر إتحاد المسلمين وتضامنهم في كافة العبادات فالصلاة فرضت جماعة، وخصص شهر الصيام لكافة المسلمين

مهما تباعدت البلاد وتناءت الأقطار، وفريضة الزكاة تؤدى بروح التكافل وحسب نظام واحد في المقادير والأنصبة.

والحج أيضا يؤدي في زمان واحد ومكان واحد يجتمع فيه المسلمون من كافة أنحاء العالم.

ثم إن الصلاة فيها انتظام الألفه بين المتجاورين في طرفي النهار وجوف من الليل.

نقل الإمام الطيبي رحمه الله: "لعل الفائدة من صلاة الجماعة هي اجتماع المسلمين مصطفين كصفوف الملائكة"

فلم يكن السلف الأقدمون يتصورون الصلاة من غير جماعة فقد غضب الصحابي الجليل أبو الدرداء رضي الله عنه يوما على تخلف بعض الناس عن صلاة الجماعة فلما سئل عنه قال:

والله ما أعرف من أمة محمد (صلى الله عليه وسلم) إلا انهم يصلون جميعا[1].

قال الإمام الشافعي رحمه الله: وإذا كان للمسجد إمام راتب ففاتت رجلا أو رجالا فيه الصلاة صلوا فرادى ولا أحب أن يصلوا فيه جماعة فإن فعلوا اجزأهم الجماعة فيه وإنما كرهت ذلك لهم لأنه ليس مما فعله السلف قبلنا بل قد عابه بعضهم.

---

[1]- فتح الباري ٢/١٦٢.

قال رحمه الله: وأحسب كراهية من كره ذلك منهم إنما كـــان لتفرق الكلمة ، وأن يرغب رجل عن الصلاة خلف إمام جماعـــة فيتخلف هو ومن أراد المسجد في وقت الصلاة فإذا قضيت دخلوا فجمعوا فيكون هذا اختلاف وتفرق كلمة[1].

ويقول الشيخ أحمد شاكر: والذي ذهب إليه الشافعي من المعنى في هذا الباب صحيح جليل ناشئ عن نظر ثاقب وفهـــم دقيـــق وإدراك لروح الإسلام ومقاصده و إن أول مقصد لازم ثم أجلّـــه وأخطره توحيد كلمة المسلمين وجمع قلوبهم على غاية واحدة هي إعلاء كلمة الله وتوحيد صفوفهم في العمل لهذه الغاية.

وإن عبادة الله وحده وعدم الشرك به مصدر القوة الروحيـــة ومصدر التسامح والمحبة بين البشر وأن الاعتصام بحبل الله جميعـــا وعدم التفرق على الحق هو وحدة الصف في لغة العصر.

إن وحدة الأمة الإسلامية وحدة عقيدة، ووحدة قبلة، ووحدة قرآن.

هذه هي عوامل الوحدة وهي لا تتنافى مع الاستقلال الـــذاتي لكل مجموعة لكنها تكون أسرة موحدة يشد بعضها بعضا وترتبط برباط روحي وتلتقي على مبادئ سامية كفيلة بإيجاد أواصر المحبة

---

[1]- كتاب الأم ١/١٥٤.

والتعاون والتناصح على نحو يترتب عليه نتائج إيجابية.

إن الوحدة الإسلامية أبعد أثرا وأوفر سلامة وأكرم روحا فهي تحمى الفرد والجماعة وتربي الفرد تربية روحية.

قال الإمام القرطبي:

عن عبد الله بن مسعود (واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا) قال: الجماعة؛ روي عنه وعن غيره من وجـــوه. والمعـــنى كلـــه متقارب متداخل؛ فإن الله تعالى يأمر بالألفة و ينهى عن الفرقة فان الفرقة هلكة والجماعة نجاة، يقول الإمام القرطبي: ويجوز أن يكون معناه: ولا تفرقوا متابعين للهوى والأغراض المختلفة بدليل قولـــه تعالى:

(واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداءً فألّف بين قلـــوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا)[1]

وليس فيه دليل على تحريم الاختلاف في الفروع لأن الاختلاف ما يتعذر معه الائتلاف والجمع و أما حكم مسائل الاجتهاد فـــإن الاختلاف فيها بسبب استخراج الفرائض ودقائق معاني الشـــرع؛ ومازالت الصحابة يختلفون في أحكام الحوادث وهم مـــع ذلـــك

[1]- سورة آل عمران: ١٠٣.

متآلفون[1].

وكما هو معروف ان الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله حينما عرض عليه رجل كتابا في الاختلاف قال: لا تسمه: كتاب "الاختلاف"، سمّه: كتاب "السعة" أو كتاب "السند".

وقال بعض العلماء: إجماعهم حجة قاطعة واختلافهم رحمة واسعة' ويقول الإمام ابن قدامة المقدسي:

وأما النسبة إلى إمام في فروع الدين كالطوائف – أي المذاهب الأربع– فليس بمذموم فإن الاختلاف في الفروع رحمة والمختلفون فيه محمودون في اختلافهم، مثابون في اجتهادهم واختلافهم رحمة واسعة واتفاقهم حجة قاطعة[2].

مواقف الإمام مالك في سدّ أبواب الفتنة:

ولإمام دار الهجرة مالك بن أنس رحمه الله مواقف عظيمة في سدّ أبواب الفتنة.

فقد روي الحافظ أبو نعيم في حلية الأولياء عن عبد الله بن الحكم قال: سمعت مالك بن أنس رحمه الله تعالى يقول:

---

[1]- الجامع لأحكام القرآن طبعة دار الكتب العلمية ٤/١٠٢- ١٠٣ بحذف و اختصار.

[2]- لمعة الاعتقاد.

"شاوريني الرشيد في أن يعلق الموطأ في الكعبة ويحمل الناس على ما فيه فقلت: لا تفعل فان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم اختلفوا في الفروع وتفرقوا في البلدان وكل عند نفسه مصيب، فقال: وفقك الله أبا عبد الله"[1]

كذلك روي ابن سعد في الطبقات عن محمد بن عمر الأسلمي الواقدي قال: سمعت مالك بن أنس يقول: لما حج المنصور قال لي: إني قد عزمت على ان آمر بكتبك هذه التي وضعتها فننسخها ثم أبعث إلى كل مصر من أمصار المسلمين منها بنسخة وآمرهم أن يعملوا بما فيهما ولا يتعدوه إلى غيره فقلت يا أمير المؤمنين لا تفعل هذا' فان الناس قد سبقت إليهم أقاويل وسمعوا أحاديث، ورووا روايات، وأخذ كل قوم بما سبق إليهم و دانوا به من اختلاف الناس فدع الناس وما اختار أهل كل بلد منهم لأنفسهم[2].

و هكذا سد هذا الإمام العلم باب الفتنة الكبرى التي كانت ستحدث في حالة إرغام الناس على نمط واحد من الفهم وطريقة واحدة من الاجتهاد.

وكذلك كان موقف هذا الإمام الجليل في سد باب الفتنة في

---

[1]- حلية الأولياء ٣٣٢/٢.

[2]- طبقات ابن سعد صـ ٤٤٤ القسم الأخير.

باب العقيدة حينما سأله سائل عن الاستواء فقال: الإستواء معلوم والكيف مجهول والسؤال عنه بدعة، ثم زجر السائل وطرده من مجلسه لما تفرس فيه الجنوح إلى الفتنة والولوع بالخوض فيما لا ينبغي فيه الخوض للإنسان.

وقد كره النبي صلى الله عليه وسلم من الجدال فيما يفضي إلى الاختلاف والتفرق فخرج على قوم من أصحابه وهم يتجادلون في القدر فكأنما فقيء في وجهه حب الرمان وقال: أبهذا أمرتم؟ أم إلى هذا دعيتم: أن تضربوا كتاب الله بعضه ببعض إنما هلك من كان قبلكم بهذا ضربوا كتاب الله بعضه ببعض.

قال عبد الله بن عمرو رضي الله عنه: فما اغبط نفسي كما غبطتها أن لا أكون في ذلك المجلس[1].

كذلك موقفه في مسألة إعادة بناء الكعبة على قواعد إبراهيم تنفيذا لما أبدى النبي صلى الله عليه وسلم من رغبته في ذلك حيث ان الخليفة المنصور لما سأله فقال: لا تفعل حتى لا تكون الكعبة ألعوبة في أيدي العابثين من الحكام، وليس هذا الموقف من هذا الإمام الجليل أقل أهمية في درء الفتنة عن الأمة وعدم إثارة أمور تحدث الشقاق و تشق عصا الوحدة.

---

[1]- رواه أبو داود.

والنظر في هذه المواقف الثلاثة للإمام مالك يدل على أنه رحمه الله من خلال رده في مسألة الاستواء سدّ باب الفتنة في الاعتقـــاد' ومن خلال رفضه لإجبار الناس على العمل بما في الموطأ درأ "الفتنة في الفقه" ومن خلال منعه الخليفة من إعادة بناء الكعبة درأ "فتنـــة سياسية ودينية مزدوجة" فللّه دره ما أعظم إخلاصه وزهده ومـــا أبعد نظره رحمه الله رحمة واسعة.

وكذلك نرى الإمام الشافعي رحمه الله يناظر معاصره الإمـــام الحافظ أبا موسى يونس بن عبد الأعلى المصري الصدفي في مسألة، ويرى أن الحق معه ويفترق عن صاحبه دون إقناع أو اقتناع مـــع ذلك يقول أبو موسى:

ما رأيت أعقل من الشافعي ناظرته يوما في مســـألة ثم افترقنـــا ولقيني فأخذ بيدي ثم قال: يا أبا موسى ألا يســـتقيم أن نكـــون إخوانا وان لم نتفق في مسألة فلا داعي إلى التشدد والإنكـــار في الأمور الخلافية بين علماء الأمة وأئمتها.

ويقول الإمام ابن تيمية رحمه الله: وكان العلماء من الصـــحابة والتابعين ومن بعدهم يتناظرون في المســـائل منـــاظرة مشـــاورة ومناصحة، ربما اختلف قولهم في المسألة العلمية والعملية مع بقـــاء الألفة واخوة الدين بينهما.

نعم من خالف الكتاب المستبين والسنة المستفيضة أو ما أجمع عليه سلف الأمة خلافا لا يعذر فيه فهذا يعامل فيه معاملة أهل البدعة.

وكذلك يقول في موضع آخر:

أما الاختلاف في الأحكام فأكثر من أن ينضبط فكان أبو بكر وعمر رضي الله عنهما يختلفان ويتنازعان ولا يقصدان إلا الخير.

كذلك يقول ابن تيمية رحمه الله متحدثا عن قاعدة أهل السنة والجماعة في أهل الأهواء والبدع:

"ولا يجوز تكفير المسلم بذنب فعله ولا بخطأ أخطأ فيه، كالمسائل التي تنازع فيها أهل القبلة" فإن الله تعالى قال حاكيا دعاء المؤمنين (ربّنا لا تؤاخِذنا إن نَسِينَا أو أخطأنا) وقد ثبت في الصحيح أن الله تعالى أجاب هذا الدعاء وغفر للمؤمنين خطأهم.

والخوارج المارقون الذين أمر النبي صلى الله عليه وسلم بقتالهم، قاتلهم أمير المؤمنين علي بن أبي طالب أحد الخلفاء الراشدين واتفق على قتالهم أئمة الدين من الصحابة والتابعين ومن بعدهم ولم يكفرهم علي بن أبي طالب أو سعد بن أبي وقاص وغيرهما من الصحابة بل اعتبرهم مسلمين مع قتالهم ولم يقاتلهم علي

رضي الله عنه حتى سفكوا الدم الحرام وأغاروا على ثغور المسلمين فقاتلهم لدفع ظلمهم وبغيهم لا لأنهم كفار ولهذا لم يسب حريمهم و لم يغنم أموالهم.

ثم يقول الإمام ابن تيمية رحمه الله:

والأصل أن دماء المسلمين وأموالهم وأعراضهم محرمة من بعضهم على بعض لا تحل إلا بإذن الله ورسوله قال صلى الله عليه وسلم "كل المسلم على المسلم حرام: دَمه وماله وعرضه" وقال: "من صلّى صلاتنا واستقبل قبلتنا و أكل ذبيحتنا فهو المسلم له ذمة الله ورسوله"

وقال: إذا قال المسلم لأخيه: يا كافر فقد باء بها أحدهما.

وبعد ذكر قصة عمر رضي الله عنه مع حاطب بن أبي بلتعة، وقصة أسيد بن الحضير مع سعد بن عبادة، وقتال أهل الجمل و صفين يقول الإمام ابن تيميه:

و لهذا كان السلف مع الاقتتال يوالي بعضهم بعضا موالاة الذين لا يعادون كمعاداة الكفار فيقبل بعضهم شهادة بعض ويأخذ بعضهم العلم من بعض ويتوارثون ويتناكحون ويتعاملون معاملة المسلمين بعضهم مع بعض رغم ما كان بينهم من القتال والتلاعن فالمتأول والجاهل المعذور ليس حكمه حكم المعاند

الفاجر(قد جَعل الله لِكلّ شيءٍ قدراً)[1].

ويقول الإمام الشاطبي رحمه الله في كتابه "الاعتصام":

وقد اختلفت الأمة في تكفير هذه الفرق من أصحاب البدع العظمى، ولكن الذي يقوى في النظر وبحسب الأثر عدم القطع بتكفيرهم والدليل عليه عمل السلف الصالح فيهم ألا ترى إلى صنع علي رضي الله عنه في الخوارج، عاملهم في قتالهم معاملة أهل الإسلام ، على مقتضى قول الله تعالى: (وإن طائفتان مِن المؤمنينَ اقتتلوا فأصلِحُوا بينهُمَا)

فانه لما اجتمعت الحرورية وفارقت الجماعة لم يهاجمهم علي رضي الله عنه ولا قاتلهم ولو كانوا بخروجهم مرتدين لم يتركهم لقوله صلى الله عليه وسلم: "من بدل دينه فاقتلوه" ولأن أبا بكر رضي الله عنه خرج لقتال أهل الردة و لم يتركهم فدل ذلك على اختلاف ما بين المسألتين[2].

كذلك يقول العلامة المحدث علي القاري رحمه الله: نقلا عن ابن حجر الهيثمي المكي: الصواب عند الأكثرين من علماء السلف والخلف: أنا لا نكفر أهل البدع والأهواء، إلا إذا أتوا بكفر صريح

---

[1]- مجموع الرسائل والمسائل لابن تيمية ٥/٢٠١.

[2]- الاعتصام ٢/١٨٥- ١٨٧.

لا استلزامي لأن الأصح أن لازم المذهب ليس بلازم[1].

ومن ثم لم يزل العلماء يعاملونهم معاملة المسلمين في الزواج معهم والصلاة على موتاهم ودفنهم في مقابرهم، لأنهم وإن كانوا مخطئين غير معذورين لكنهم بذلوا وسعهم في إصابة الحق فلم يحصل لهم ذلك لتقصيرهم بتحكيم عقولهم وأهويتهم وإعراضهم عن صريح السنة والآيات من غير تأويل سائغ.

وبهذا فارقوا مجتهدي الفروع، فان خطأهم إنما هو لعذرهم بقيام دليل آخر عندهم، مقاوم لدليل غيرهم من جنسه، فلم يقصّروا ومن ثم أثيبوا على اجتهادهم[2] على عكس أهل البدع والأهواء.

فإن عامة اختلافات الفقهاء والتنازعات الشائعة بين أتباعهم والذين لا يقلدونهم في أمور مستحبات ومكروهات لا في واجبات ومحرمات فإن الرجل إذا حج متمتعا أو قارنا أو مفرداً كان حجه مجزئا عند عامة المسلمين وإن تنازعوا في الأفضل من ذلك.

---

[1]- ورحم الله الإمام أبا حنيفة النعمان أنه لما سئل: لم لا تكفر الناس الذين يكفرونك؟ فرد قائلا: إنهم كذبوا عليّ ولم يكذبوا على الله سبحانه وتعالى فهم كاذبون وليسوا كفرة.

[2]- المرقاة شرح المشكاة ١/١٤٧- ١٤٨، وراجع السيل الجرار للشوكاني ٤/٥٧٨- ٥٧٩، و ٥٨٤- ٥٨٥.

كذلك الأذان سواء رجّع فيه أو لم يرجّع فإنه أذان صحيح عند جميع سلف الأمة وعامة خلفها وسواء ربع التكبير في أوله أو ثنّاه وإنما يخالف في ذلك بعض شواذ المتفقهة.

وكذلك الإقامة يصح فيها الإفراد والتثنية بأيتهما أقام صحت إقامته عند عامة علماء الإسلام إلا ما تنازع فيه شذوذ الناس.

كذلك الجهر بالبسملة والمخافتة كلاهما جائز صحيحة وإن كان من العلماء من يستحب أحدها أو يكره الآخر أو يختار أن لا يقرأ بها فالصلاة صحيحة عند عامة العلماء.

إن الإسلام دين ائتلاف واتفاق ودين وحدة واجتماع وإن الآيات القرآنية والأحاديث النبوية الشريفة كلها تدعو إلى الأخوّة والوئام والاندماج والانسجام وتمنع من التقاتل والتناحر أو التشرذم' والنصوص الشرعية في هذا الموضوع أكثر من أن تحصى.

إن الإسلام دين كامل وتعاليمه شريعة خالدة فإذا كانت أصول العقيدة واضحة ثابتة لا تتغير بتغير الزمان والمكان وكذلك أصول الفرائض ومنصوصات المحرمات قطعية غير قابلة للتحويل والتبديل فهناك آيات بينات واضحات تهدي إلى أحكام قضايا عملية ذكرت في صورة أصول وكليات يمكن استنباط المزيد من الجزئيات منها مع تطور الحياة وتغير الظروف والملابسات فلا تغيير

في القطعيات ولا تبديل في الإيمانيات لكن لا خطر من إعمال الفكر الإجتهادي في الأمور الفقهية الكليات لاستخراج مزيد من أحكام الجزئيات والاختلاف أن يأخذ كل واحد طريقا غير طريق الآخر في حاله أو قوله' والخلاف يدل على تباين في الآراء والمواقف حول أمر من الأمور، واختلاف في وجهات النظر وهو أعم من التفرق فليس كل خلاف تفرقا.

والإختلاف والتنوع سنة من سنن هذا الكون وإنما يكون الإختلاف مذموما إذا كان ناتجا عن اتباع الهوى والتعصب الممقوت لشخص أو جماعة.

يقول الله عزوجل:

(ولو شاءَ ربُّك لجَعَلَ النَّاس أمة واحدة ولا يَزالُونَ مُختلفينَ إلا مَن رَّحِمَ ربّك ولذلك خَلقهُم)[1]

يقول الإمام الشاطبي رحمه الله:

"وللاختلاف خلقهم ليكونوا فريقا في الجنة وفريقا في السعير ونحوه عن الحسن فالضمير في خلقهم عائد إلى الناس فلا يمكن أن يقع منهم إلا ما سبق في العلم"[2]

---

[1]- سورة هود: ١١٨- ١١٩.

[2]- الاعتصام ٢/٦٧٠.

خلق أهل الاختلاف للاختلاف وأهل الرحمة للرحمة ومما يدل على أن الاختلاف سنة من سنن الله ما رواه الإمام مسلم رحمه الله من حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أقبل ذات يوم حتى مر بمسجد بني معاوية، دخل فركع فيه ركعتين وصلينا معه ودعا به طويلا ثم انصرف إلينا فقال:

"سألت ربي ثلاثا فأعطاني ثنتين ومنعني واحدة، سألت ربي أن لا يهلك أمتي بالسنة فأعطانيها، وسألته أن لا تهلك أمتي بالغرق فأعطانيها، وسألته أن لا يجعل بأسهم بينهم فمنعنيه"[1]

وهذه إشارة إلى أن التفرقة والاختلاف لابد من وقوعهما في الأمة وكان يحذر أمته لينجو من شاء الله له السلامة[2].

ولقد أمر الإسلام بالتعاون والائتلاف والتماسك والإتحاد بين أفراده ونبذ الخلاف وأسباب التناحر والشقاق، ومنع من التفرق قال تعالى:

(يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتنَّ إلا وأنتم مسلمون، واعتصِمُوا بحبل الله جميعاً ولا تفرَّقوا واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداءً فألَّف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً

---

[1]- رواه مسلم.

[2]- اقتضاء الصراط المستقيم ١/١٢٢.

وكنتم على شفا حُفرَةٍ مِّن النار فأنقذكم منها كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون)[1]

وفي هذه الآية الكريمة أمر بلزوم تقواه وبالاعتصام والتمسك بدينه والحذر من التفرق عن الحق وذلك بوقوع الخلاف والشقاق بينهم كما كان الأمر في الجاهلية.

فلا يجوز التفرق بين الأمة من أجل أداء بعض المستحبات ولا يعطي المستحب فوق حقه كما لا يجوز أن تجعل المستحبات بمنزلة الواجبات بحيث يمتنع الرجل من تركها ويرى أنه يخرج من دينه أو يعصي الله ورسوله إذا تركها بل قد يكون ترك المستحبات لمعارض راجح أفضل من فعلها بل الواجبات كذلك.

وان ائتلاف قلوب الأمة أعظم في الدين من بعض هذه المستحبات فلو تركها المرء لائتلاف القلوب كان ذلك حسنا وذلك أفضل إذ كان مصلحة ائتلاف القلوب فوق مصلحة ذلك المستحب.

وقد ورد في الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها ان النبي صلى الله عليه وسلم قال لها:

"لولا أن قومك حديثو عهد بجاهلية لنقضت الكعبة ولألصقتها

---

[1]- سورة آل عمران: ١٠٢- ١٠٣.

بالأرض وجعلت لها بابا يدخل الناس منه وبابا يخرجون"[1]

وقد استدل البخاري رحمه الله وغيره على أن الإمام قد يترك بعض الأمور المختارة لأجل تأليف القلوب ودفع نفرتها.

ولهذا نص الإمام أحمد على أن الجهر بالبسملة عند المعارض راجح قال: يجهر بها إذا كان بالمدينة قال القاضي: لأن أهلها إذ ذاك كانوا يجهرون فيجهر بها للتأليف.

وفي صحيح البخاري عن رفاعة بن رافع الزرقي قال: كنا نصلي وراء النبي صلى الله عليه وسلم فلما رفع رأسه من الركعة قال سمع الله لمن حمده قال رجل وراءه: "ربنا ولك الحمد حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه" فلما انصرف قال من المتكلم ؟ قال أنا قال: رأيت بضعة وثلاثين ملكا يتبدرونها أيهم يكتبها أوّل[2].

ومعلوم أنه لولا حمده بها جهراً لما سمع النبي صلى الله عليه وسلم ولا الراوي ومعلوم ان المستحب للمأموم المخافتة بمثل ذلك.

وكذلك ثبت في الصحيح عن عمر أنه كان يجهر بدعاء الاستفتاح: سبحانك اللّهم وبحمدك وتبارك اسمك وتعالى جدّك ولا إله غيرك.

---

[1] - رواه البخاري ومسلم بألفاظ مختلفة.

[2] - صحيح البخاري حديث رقم ٧٩٩.

وعن ابن عباس أنه جهر بقراءة الفاتحة على الجنـــازة وقـــال: لتعليمه أنها السنة.[1]

وكذلك كان ابن الزبير يجهر بالبسملة ولم يكن يجهر بها ابـــن مسعود وغيره.

كذلك القنوت في الفجر، والقنوت في الوتر، والتسليمة الثانية في الجنازة وكذلك تكبيرات العيد الزوائد، وأنـــواع التشـــهدات وأنواع الاستفتاح في الصلاة وصيغة الاستفتاح.

يقول الإمام أبوبكر الجصاص الرازي في أحكام القرآن:

"أمر الأذان والإقامة، وتكبير العيدين والتشريق ورفع اليدين في تكبير الركوع من الأمور التي نحن مخيرون فيها وإنما الخلاف بـــين الفقهاء في الأفضل منها ويحمل الأمر في ذلك على ان النبي صـــلى الله عليه وسلم قد كان منه جميع ذلك تعليماً منه وجه التخيير"[2]

وقال أبو حيان: نُهى المســـلمون عـــن التفـــرق في الـــدين والاختلاف فيه كما اختلف اليهود والنصارى وعن ما يوجـــب التفرق ويزول معه الاجتماع[3].

---

[1] - أنظر صحيح البخاري حديث رقم ١٣٣٥.

[2] - أحكام القرآن ١/٢٠٣- ٢٠٤.

[3] - البحر المحيط ٣/٢١.

و يقول ابن كثير: إن الله أمرهم بالجماعة ونهاهم عن التفرقة وقد وردت أحاديث كثيرة بالنهي عن التفرق والأمر بالاجتماع والائتلاف.

وقد ضمن الله لهم العصمة من الخطأ عند اتفاقهم وخيف عليهم الخطأ عند افتراقهم واختلافهم.

إن هذا الوقت العصيب الذي تمر به الأمة وتكالبت فيه قوى الشر لتقويض بلاد الإسلام ونهب خيراتها فهي تمارس الضغوط لتذويب كيانها وإخراجها من خصائصها ومميزاتها بل بدأت تستهزئ برموزها وتدنس شعائرها ومقدساتها ولا تملك الأمة قوة رادعة لتلك الدسائس والمؤامرات ازدادت فيه مسئوليات علماء الأمة ودعاتها لأداء دورهم التاريخي:

أوّلاً: في إنقاذ الأمة مما تعاني منه من تحديات وما يحيط بها من أخطار.

ثانياً: بوضع الضوابط الشرعية الدقيقة وبيان شروط الإفتاء في الدين وإيضاح أحكام الشريعة للمسلمين، خاصة في القضايا التي تتعلق باستباحة أرواح الناس وأعراضهم وممتلكاتهم.

ثالثاً: بوضع الحد لظاهرة الغلو والتطرف التي تكاد تقضي على الأخضر واليابس والتي دخلت في مرحلة تخريب بيوت المسلمين

بأيديهم.

رابعاً: بتأصيل "الوسطية" وتقعيد قواعدها وضبط أصـــولها، حتى لا تكون الدعوة إلى الوسطية انبطاحا أمام الآخرين وتفريطـــا في حقوق المسلمين.

- فيجب أن يكون الحكم بالتوسط داخلا ومندرجا تحـــت أصل من أصول الدين.
- وأن لا يعارض ما هو ثابت بالضرورة من أمور المسلمين.
- أن لا يؤدي شعار التوسط إلى مفسدة أكبر بـــدل تحقيـــق مصلحة مقصودة.
- أن لا يكون الحكم بالتوسط في القضايا الشرعية منصوصة الحدود والمعالم.

ضرورة تفعيل قرار رابطة العالم الإسلامي حول المذاهب:

ومن أجل سد الفجوة بين الفئات المختلفة من المسلمين يتطلـــب الأمر من جديد إلى تفعيل القرار التاريخي الذي كان قد اتخذه المجمـــع الفقهي التابع لرابطة العالم الإسلامي في دورته العاشرة المنعقدة ســـنة ١٤٠٨هـــ حول موضوع الخلاف الفقهي بين المذاهب فقد كـــان اصدر بيانا واضحا بعد المداولات تنبيها وتبصيرا جاء فيه:

أولاً: حول اختلاف المذاهب:

إن اختلاف المذاهب الفكرية القائم في البلاد الإسلامية نوعان:

أ. اختلاف في المذاهب الاعتقادية.

ب. واختلاف في المذاهب الفقهية.

فأما الأول، وهو الاختلاف الاعتقادي، فهو في الواقع مصيبة جرَّت إلى كوارث في البلاد الإسلامية، وشقَّت صفوف المسلمين، وفرَّقت كلمتهم، وهي مما يُؤسَف له، ويجب أن لا يكون، وأن تجتمع الأمة على مذهب أهل السنة والجماعة الذي يمثّل الفكر الإسلامي النقي السليم في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وعهد الخلافة الراشدة، التي أعلن الرسول أنها امتداد لسنّته بقوله: "عليكم بسنّتي وسنّة الخلفاء الراشدين من بعدي، تمسَّكوا بها وعَضُّوا عليها بالنواجذ"[1]

وأما الثاني، وهو اختلاف المذاهب الفقهية في بعض المسائل، فله أسباب علمية اقتضته، ولله سبحانه في ذلك حكمة بالغة، ومنها: الرحمة بعباده وتوسيع مجال استنباط الأحكام من النصوص، ثم هي بعد ذلك نعمة وثروة فقهية تشريعية تجعل الأمة الإسلامية

[1] - جاء في سنن الترمذي برقم ٢٦٧٦ بلفظ: فعليكم بسنتي و سنة الخلفاء الراشدين المهديين، عضوا عليها بالنواجذ.

في سعة من أمر دينها وشريعتها، فلا تنحصر في تطبيق حكم شرعي واحد حصراً لا مناص لها منه إلى غيره، بل إذا ضاق بالأمة مذهب أحدِ الأئمة الفقهاء في وقتٍ ما، أو في أمر ما، وجدت في المذهب الآخر سعةً ورفقاً ويسراً، سواء أكان ذلك في شؤون العبادة أم في المعاملات وشؤون الأسرة والقضاء والجنايات، على ضوء الأدلة الشرعية.

فهذا النوع الثاني من اختلاف المذاهب، وهو الاختلاف الفقهي، ليس نقيصة ولا تناقضاً في ديننا، ولا يمكن أن لا يكون، فلا يوجد أمة فيها نظام تشريعي كامل بفقهه واجتهاده ليس فيها هذا الاختلاف الفقهي الاجتهادي.

فالواقع أن هذا الاختلاف لا يمكن أن لا يكون، لأن النصوص الأصلية كثيرا ما تحتمل أكثر من معنى واحد، كما أن النص لا يمكن أن يستوعب جميع الوقائع المحتملة، لأن النصوص محدودة والوقائع غير محدودة، كما قال جماعة من العلماء رحمهم الله تعالى، فلا بد من اللجوء إلى القياس والنظر إلى علل الأحكام وغرض الشارع والمقاصد العامة للشريعة، وتحكيمها في الوقائع والنوازل المستجدة.

وفي هذا تختلف فهوم العلماء وترجيحاتهم بين الاحتمالات، فتختلف أحكامهم في الموضوع الواحد، وكلّ منهم يقصد الحق

ويبحث عنه، فمن أصاب فله أجران، ومن أخطأ له أجر واحـــد، ومن هنا تنشأ السعة ويزول الحرج.

فأين النقيصة في وجود هذا الاختلاف المذهبي الذي أوضحنا ما فيه من الخير والرحمة، وأنه في الواقع نعمة ورحمة من الله بعبـــاده المؤمنين، وهو في الوقت ذاته ثروة تشريعية عظمى ومزية جـــديرة بأن تتباهى بها الأمة الإسلامية، ولكن المضلّلين من الأجانب الذين يستغلّون ضعف الثقافة الإسلامية لدى بعض الشـــباب المســـلم، ولاسيما الذين يدرسون لديهم في الخارج، فيصوّرون لهم اختلاف المذاهب الفقهية هذا، كما لو كان اختلافاً اعتقادياً ليوحوا إلـــيهم - ظلماً وزوراً- بأنه يدلُّ على تناقض الشريعة دون أن ينتبهوا إلى الفرق بين النوعين، وشتان ما بينهما!.

ثانياً: وأما تلك الفئة الأخرى التي تدعو إلى نبـــذ المـــذاهب، وتريد أن تحمل الناس على خط اجتهادي جديد لها، وتطعـــن في المذاهب الفقهية القائمة، وفي أئمتها، أو بعضهم: ففي بياننا الآنف عن المذاهب الفقهية، ومزايا وجودها وأئمتها: ما يوجب عليهم أن يكفُّوا عن هذا الأسلوب البغيض الذي ينتهجونه ويضـــلّلون بـــه الناس ويشقُّون صفوفهم، ويفرقون كلمتهم، في وقت نحن أحوج ما نكون إلى جمع الكلمة في مواجهة التحديات الخطيرة من أعداء

الإسلام، بدلاً من هذه الدعوة المفرقة التي لا حاجة إليها.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً، والحمد لله ربّ العالمين.

ينبغي أن يكون هذا القرار التاريخي الصادر عن رابطة العالم الإسلامي وبتوقيع كبار الفقهاء المشهود لهم بالعلم والفضل أساسا للانطلاقة نحو توحيد صف الأمة على اختلاف فئاتها ومذاهبها.

والله ولي التوفيق،،،

***

العالم الإسلامي .... المشكلات والحلول

الحمد لله والصلاة والسلام على محمد ومن والاه وبعد:

ففي وقت عصيب يمر فيه العالم الإسلامي اليوم بمرحلة دقيقة وحساسة من تاريخه، فيشهد بعض الأجزاء منه حراكا سياسيا لا مثيل له في التاريخ القديم أو الحديث، وقد حصل التغيير في بعض منها بصورة مفاجئة وبأسلوب غير معهود، ومازالت الأوضاع غير مستقرة في بعض أخرى وهي أيضا وشيكة التغيير.

في مثل هذا الوقت العصيب لاغرو أن يرتفع صوت من رحاب البيت العتيق ينادي العلماء والمفكرين المسلمين لدراسة الأوضاع الراهنة، ولمناقشة المشكلات التي تعاني منها دول العالم الإسلامي، وتقديم الحلول لتلك المشكلات في جو هادئ وبلد آمن بعيدا عن التجاذبات والمنازعات.

إن رابطة العالم الإسلامي – وهي سباقة دائما في رصد التحديات وتمهيد الطريق لمواجهتها، ودراسة مشكلات الأمة وتقديم الحلول لها – تستحق كل ثناء وتقدير على عقد هذا المؤتمر الإسلامي العالمي وجمع هذا العدد الكبير من ذوي العلم والفكر في

بلد الله الحرام مكة المكرمة لاتخاذ موقف موحد لمواجهة التحديات وتقديم الحلول للمشكلات.

إن هذا المؤتمر الإسلامي العظيم يُعقد تحت رعاية خادم الحرمين الشريفين الملك عبد الله بن عبد العزيز آل سعود حفظه الله الذي عرف بمواقفه النبيلة في رأب الصدع بين الدول الإسلامية والفئات المتنازعة من المسلمين من ناحية، وبمبادراته الجريئة والموفقة في بدأ الحوار مع كافة أهل الملل والديانات من ناحية أخرى وذلك لإيجاد مناخ آمن للتعايش بين الشعوب والأمم على اختلاف اتجاهاتها وأعراقها وأجناسها ومللها وأديانها، وتوفير الأمان للمسلمين جميعا على اختلاف دولهم وأماكن وجودهم.

لقد شهدت الشهور الماضية حدوث تغيير عفوي في كل من تونس ومصر بعد مظاهرات صاخبة، جمعت كافة أطياف المجتمع ضد السلطات المستبدة، وكان التغيير قد حصل بتلقائية كأن الأمر عفو الخاطر وفيض الساعة.

إن الاستبداد بالحكم وممارسة الظلم ضد الناس، كذلك الفساد المستشري في المؤسسات الحكومية، والتصرف السيئ في أموال الأمة كل ذلك من المنكرات ولكن اتخاذ وسيلة العنف لإزاحة الاستبداد، وإصلاح ما فسد من أمور الأمة قد يؤدي إلى فتنة وفساد عريض

فيصيب الناس ضرر أكبر، لذا يجب أن يكون زمام الأمور في أيدي الحكماء من أهل العلم والفقه في الدين والأمناء من أرباب الحل والعقد حتى يصدروا التعليمات المؤثرة بعد استعراض الأمور من كافة الجوانب، والموازنة بين المصالح والمفاسد.

إن ثلاثية الطغاة' والغلاة' والغزاة' هي مأساة الأمة، فالطغاة يتسببون في خلق جيل من الغلاة، ثم هم يتحولون إلى غزاة ضد مصالح الأمة نفسها بسبب ضعفهم في فهم الدين، وعدم مقدرتهم على تقدير الواقع ولعدم معرفتهم "السياسة الشرعية" وهي عبارة عن مبادئ تنير الطريق للتعامل بين الراعي والرعية، وتجنب الأمة من الحوادث والكوارث، وتنقذ الناس من الوقوع في الأزمات والابتلاءات.

إن المسلمين يشكلون كتلة هائلة من البشر، يفوق عددهم خمس سكان العالم الإنساني وهم يقطنون دول الشرق الأوسط وينتشرون في كافة قارات وبقاع العالم، لديهم البحر الأحمر بالكامل وأكثر شواطئ البحر الأبيض المتوسط والجزء الكبير من شواطئ البحر الأسود وأكثر بحر القزوين.

ولديهم النيل' والفرات' والدجلة' والعاصي' ونهر السند والكثير من البحيرات والأنهار.

وكذلك هم يعيشون عموما في بعض أكثر الأراضي خصوبة وإنتاجا في العالم توصف بأنها سلة الغذاء، ويملكون أكبر مخـــزون عالمي للنفط، كما أن لديهم مفاتيح التحكم في المضايق والممرات المائية والجوية/ فمضيق هرمز وباب المندب وقناة السويس كلها في أراضي المسلمين ولهم السيادة عليها.

رغم كل هذه المزايا والإمكانات، أصبح المسلمون اليوم أقـــل حصانة بين الأمم بسبب عدم وجود التحصين السياسي للمسلمين باختيار القيادة الصالحة، وكذلك فقد التحصين العســـكري مـــن خلال بناء قوة رادعة.

فيجب أن تبدأ عملية بناء أمة قادرة على اســـتعادة مجـــدها الغابر، ومن المعلوم أن مجرد شراء الأسلحة وتخزينها لا تجعل الدول الإسلامية قوة رادعة لأن "السيف بالساعد لا الساعد بالسيف".

وقديما قيل:

ولا ينفـــع الخيـــل الكـــرام ولا القنـــا
إذا لم يكـــن فـــوق الكـــرام كـــرام

إن الخروج في المظاهرات والاحتجاجات، وجمع أفراد الشعب للضغط على الحكومات لرفع الظلم أو زيادة الأجـــور، أو إلغـــاء الضرائب المفروضة التي تكسر كواهل المواطنين مـــن الأســـاليب

السائدة في هذا العصر.

كما أن الإضراب العام من قبل فئة من فئات النـــاس مثـــل الأطباء أو المحاميين وغيرهم، كذلك الإضراب عن الطعام من أجل إجبار السلطات على قبول مطالب الشعب والجماهير، من الأمور التي لم يعرفها الأقدمون فلا يكاد يوجد لها أحكام شرعية واضحة في كتب الفقه أو في شـــروح كتـــب الحـــديث، ولا يخفـــى أن الإضرابات وإيقاف حركة العجلات مع التهديد والوعيد لمـــن لا يخضع لمثل هذه الدعوات فيها مخاطر كثيرة.

الإضراب عن الطعام قد يؤدي إلى الموت والانتحار، وهذا لا يجوز شرعا، كذلك حرق المباني والممتلكـــات عامـــة كانـــت أو خاصة، أو تكسير أبواب البيوت والمحلات أو تـــدمير المركبـــات والسيارات كل ذلك من الجرائم والمعاصي عند الله ســـبحانه، وأن إتلاف الأشياء التي تمتلكها الجماهير وعامة الناس كمرافق الدولـــة والأملاك الحكومية العامة لا يمكن تلافيه أو التخلص من تبعاته لأن حقوق العباد يجب أداءها إلى أصحابها حتى تصح توبـــة مـــرتكبي الإتلاف والمباشر للحرق والتدمير.

إن الإضرابات لا تخلو عادة من إرغام ذوي الحاجة على ترك عمله فالمريض لا يسمح له أن يذهب إلى الطبيـــب، والعامـــل لا

يسمح له أن يكسب رزقه اليومي، فلا تترك للناس حرية الرأي في اتخاذ ما يرونه مناسبا لظروفهم الخاصة ويترتب على ذلك مفاسد كثيرة، لذا لا يجوز شرعا ارتكاب ما يؤدي إلى المفاسد إلا بشروط أن لا تحدث مثل هذه المخالفات الشرعية، لذا نقول أن الإضرابات وإن كانت جائزة في نفس الأمر إلا أن ما يحدث بسببها من أضرار ومفاسد يجب الامتناع عنها قبل التأكد من عدم حدوثها.

كذلك تنظيم الاجتماعات أو المظاهرات الحاشدة إذا كان لا يؤدي إلى مفاسد وأضرار فلا بأس به، وهنا يأتي السؤال أنه إذا كانت الإضرابات والمظاهرات كلها ممنوعة فما هو السبيل للتخلص من السلطات الجائرة الظالمة؟ ألم يضع الإسلام طريقا لرفع الظلم عن عامة الناس حتى في حالة ارتكاب الحاكم جرائم القتل والاغتصاب والسرقة والنهب والعمل بما يخالف شرع الله سبحانه؟!

والجواب أن الإسلام حرّم الظلم، وأوجب إعطاء كل ذي حق حقه، وجعل حفظ النفس والمال والعرض والعقل والدين من مقاصد الشريعة الإسلامية، فيجب على كل من الحاكم والمحكوم الوقوف عند حدود الله، فإن الظلم ظلمات يوم القيامة، ومن أخذ شبرا من أراضي أحد يطوق يوم القيامة بسبع أرضين، ويجب على

الحاكم أن يطبق الحدود فيأخذ القصاص ممن يقتل النفس من غـــير حق مسئولا كان أم من عامة الناس، وفي حالة التمادي في الغـــيّ، وخرق قوانين الشريعة من قبل المسئولين، الحكم الواضح والصريح في الشريعة أنه: "لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق".

ففي حالة الظلم الواضح، والفساد البين أمام الناس طريقة عدم الانصياع للأحكام، والتمرد على الأحكام الجائرة المخالفة للشريعة وهو شبيه بالعصيان المدني، فإذا رفض جميع القضاة مثلا أن لا نحكم إلا بما أنزل الله سبحانه ولا نقبل إلا أحكام الشريعة الإسلامية.

كذلك إذا رفض المحامون أن لا يمارسوا المحاماة في المحاكم إلا وفق أحكام الشريعة، ورفض التجار بأنهم لا يتعاملون بالربـــا ولا نجري من المعاملات إلا ما يكون خاليا من الربا أو القمار.

فإذا قامت كل فئة من فئات الأمة بالرفض والامتناع فيمكن تغيير الوضع القائم، لكن نجاح مثل هذه الخطة مرهونة باتفاق أكبر عدد من الناس وبتقديم التضحيات من بعضهم، حيـــث أنهـــم إذا صمدوا فربما يفقد البعض منهم وظائفهم الرسمية أو مـــا كـــانوا يحصلون من الحكومات من مكافآت وامتيازات.

إن نجاح خطة الإصلاح والتغيير مرهونـــة بالتزاهـــة وعـــدم التكالب على المناصب والمكاسب حيث أن الوصول إلى الحكـــم

ليس هدفا أساسيا بل إن الهدف هو إتباع أوامر الله في كافة مظاهر وشئون الحياة.

فالأحزاب السياسية التي تمارس نشاطها لإصلاح الأمور فقط يجب أن تشعر بالسعادة على تحقق الإصلاح على أيدي أي حزب أو شخص كان.

إن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يخض المعارك مع الكفار إلا بعد الهجرة إلى المدينة وقبل ذلك كان يصبر على الظلم ويركز على إعداد جيل من الأخيار الأطهار ولو كان بعدد ٣١٣ شخصا وبثمانية سيوف وفرسين فقط الذين خاضوا المعركة يوم بدر فنصرهم الله سبحانه مع قلة العدد والعتاد، وأصبح اليوم يوم الفرقان يوم التقى الجمعان، {إن الله لا يغيّرُ ما بقومٍ حتى يغيِّرُوا ما بأنفسِهم} فإعداد الناس وإصلاح القلوب وتربية النفوس يجب أن يسبق أي حركة سياسية إصلاحية ناجحة، ومن غير ذلك لا يمكن الضمان بالإصلاح مهما كانت الإضرابات والمظاهرات حاشدة وكبيرة، ومهما بلغت قدرة قادة تلك المظاهرات على تجنيد أعداد كبيرة هائلة.

إن المظاهرات المليونية أو البليونية قد تؤدي إلى تغيير رأس النظام القائم أو بعض رموزه ولكنها لا تضمن إصلاح الأوضاع،

وإخراج الناس من الظلم بل قد يحدث كما هو المعهود في الانقلابات العسكرية والثورات المليونية وغير المليونية، أن الناس يقعون في دوامة الظلم والطغيان من جديد مع تغيير الوجوه، وتتطاير الرؤوس ثم يردد الناس بعد الإحباط وتأخر الإصلاح:

رب يوم بكيت فيه

فإذا صرت في غيره بكيت عليه

إن تغيير المنكر أمر مطلوب شرعا، لكن أحكام الشرع مبنية على جلب المصالح ودرأ المفاسد، و لم يطلب الشارع تغيير المنكر إلا لأنه من المفاسد التي يجب إزالتها، فالذي يريد تغيير المنكر عليه أن يوازن أولا بين المفاسد والمصالح فإذا كان تصرفه يؤدي إلى الخسائر الجسيمة في الأرواح والأموال، أو يؤدي إلى حدوث شر أكبر مما هو عليه الآن، فعليه أن لا يغامر قبل التيقن من تمكنه من الإصلاح، ولا يخرج على النظام القائم ولو كان مبنيا على الظلم والفساد.

وعلى هذا الفقه العميق يدل ما قاله الإمام أبو حنيفة النعمان بعد ما سمع مقتل تلميذه إبراهيم بن ميمون الصائغ المروزي، المعروف بحماسه وإخلاصه وإصراره على تغيير المنكر من غير مراعاة الظروف، على يد أبي مسلم الخراساني بسبب تسرعه في إنكار المنكر مع كونه من أهل الإخلاص والنزاهة، يقول أبو حنيفة

رحمه الله:

دعاني إلى حق من حقوق الله فامتنعت عليه وقلت له: "إن قام به رجل واحد قتل، ولم يصلح للناس أمر، ولكنه إن وجد عليه أعوانا صالحين ورجلا يرأس عليهم مأمونا في دين الله.

ويقول: هذا أمر لا يصلح بواحد، ما أطاقته الأنبياء حتى عقدت عليه السماء، وأن هذه فريضة ليست كالفرائض، يقوم له رجل وحده، وهذا متى أمر به الرجل وحده أشاط بدمه، وعرض نفسه للقتل فأخاف أن يعين على قتل نفسه ولكن ينتظر"(١)، وستأتي القصة بكاملها.

إن العالم الإسلامي لم يخرج من عصر الاستعمار إلا وهو مفكك ومنقسم إلى دويلات، ارتمت بعضها في أحضان الاشتراكية والشيوعية وانضمت إلى المعسكر الشرقي، وفرضت بعضها سلطات عسكرية من خلال الانقلابات والثورات، فظلمت العباد ودمرت البلاد، فالدول الإسلامية في حالة تفكك وانتشار، فليست كل دولة إسلامية على نسق واحد، فمنها دول لم تتنكر للدين ولم تمانع أن تعيش شعوبها ملتزمة بأحكام الشريعة، وتتخذ الإسلام لها عقيدة ومنهاجا، ومنها دول خرجت قيادتها عن حكم الإسلام،

---

(١) الجواهر المضيئة ١/١١٤.

وانسلخت من مبادئ الدين الإسلامي الحنيف من غـــير إعـــلان، وذلك من خلال الممارسات القمعية الظالمة والمخالفة للدين.

ومن الواضح البين أن بعض تلك الأنظمة قد أصبحت عمقا استراتيجيا لمصالح خارجية وهي باختصار:

- توفير الأمن للكيان الصهيوني.
- رعاية المصالح الغربية في البلاد الإسلامية.
- تأمين الأسواق الاستهلاكية لمنتجات دول أجنبية.
- حماية تدفق النفط بشكل آمن إلى الدول الكبرى.

إن القلق لدى بعض الشعوب الإســـلامية، أو الاضـــطرابات والثورات التي شهدتها بعض الدول هي نتيجة طبيعية للاحتقـــان الطويل تجاه السلطات المستبدة حيث أن الشـــعوب خرجـــت إلى الشوارع لإسقاطها، متهمة إياها بأنها غير أمينة وأنها تحتكر السلطة والثروة بعد ما أحكمت إغلاق كافة المنافذ المؤدية إليها على غير الحاشية والحريم، وأنها أنظمة فاسدة لا أمل في إصلاحها، فلا داعي إلى إجراء المفاوضات معها، أو عقد الصفقات وإبرام الاتفاقيـــات مع رموزها.

إن الإسلام دين التوحيد فلا يخضع الإنســـان إلا لله الواحـــد القهار، ولا يعبد إلا إيّاه، ولا يستعين إلا به، ولا خلق ولا أمر إلا

له، سبحانه.

إن التوحيد لا يقتصر أثره على العقيدة بل يعم العبادة' والتشريع' وكافة مظاهر الحياة' وجميع جوانب التعاملات.

إن التوحيد في حد ذاته مشروع بناء أمة هي خير أمة أخرجت للناس فقامت أعظم حضارة وأرقى مدنية إنسانية، مزدهرة بالعلم، ومزدانة بسمو الفكر وجمال الأخلاق.

إن الحضارة الإسلامية قامت على الأسس الثابتة من الإيمان والعدل والعلم والعمل الصالح والأخلاق الفاضلة.

لقد عاشت الإنسانية حقبة من الدهر في ظل الحضارة الإسلامية فوجدت نفسها بين العلم والدين وبين الروح والمادة، وبين العقل والقلب في غاية من الانسجام والتوازن.

والعدل هو عنوان تلك الحضارة، والمساواة بين الناس شعار المجتمع، كانت هي حضارة إيمانية، روحية، مثالية، ربانية، وإنسانية في انسجام وتناغم.

عاش الناس في ظلال الحضارة الإسلامية الوارفة شرقا وغربا وجنوبا وشمالا وكانت بدايتها منذ إعلان القرآن الكريم:

{يآ أيها الناس إنآ خلقناكم من ذَكرٍ وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبآئلَ لِتعارَفُوا، إن أكرمكم عند الله أتقاكم} (الحجرات: ١٢)

وقد أرسى دعائمها الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم خلال ٢٣ عاما من بعثته وبداية الوحي عليه، وأصبحت دعائمها راسخة عند ما وقف صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع على صعيد عرفات الطاهر مخاطبا الإنسانية جمعاء.

"أيها الناس... إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم حرام عليكم إلى أن تلقوا ربكم، كحرمة يومكم هذا، وفي شهركم هذا وفي بلدكم هذا"

فخرج ربعي بن عامر رضي الله عنه وهو ممن تربّي في أحضان النبوة ليبلغ هذه الرسالة وليقول لرستم أحد قادة الفرس الذي كان متعجبا مستغربا أن يقوم بزعزعة كيانه وتفكيك إمبراطوريته، رجال من أعراب الجزيرة بعيدين عن الحضارة والمدنية:

"إنما إبتعثنا الله لنخرج الناس من عبادة العباد، إلى عبادة رب العباد، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة".

إن العدل هو أساس الحكم في الإسلام فلا قهر ولا استعباد، ولا ظلم ولا هضم الحقوق ينسجم مع تعاليم الدين الإسلامي الحنيف، وأن عاقبة الظلم وخيمة وأن ما يحدث الآن في بعض الدول العربية الإسلامية هو خير دليل على أنه لا بقاء للظلم

والطغيان، وأن سوء استخدام السلاح، والتصرف غير السوي في المال العام من أسباب تملل الناس، وانهيار الأنظمة مهمـــا كانـــت قوية، ومدججة بالسلاح، وأن أدوات البطش والتنكيل لا يمكن أن تحمي الحكومات الظالمة إلى أمد طويل.

وإن ابن خلدون وهو إمام التاريخ وفيلسوف علم الاجتماع يؤكد في ضوء التجارب الطويلة من تاريخ الأمم والشـــعوب "أن الظلم مؤذن بخراب العمران" وهو أمر يصدقه الواقع.

إن الإسلام قد أرسخ دعائم المساواة بين كافة أفراد البشـــرية وأعلن بوضوح أنه: "لا فضل لعربي على عجمي ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى".

كما أن مبادئ الإسلام تضمن الحرية المنضبطة، وتشجع على الديمقراطية السليمة من الأوضار، تحت عنوان الشورى، وأن رجال الحل والعقد عليهم مسئولية كبيرة في حماية الدولة من الانهيـــار، وحماية الحكام من الجنوح إلى الظلم أو الميل إلى العبـــث بمقـــادير الشعوب.

إن المسلمين هم كانوا قادة العالم لكنهم يعانون الآن من ذلّ وهوان، وأن الدول الإسلامية بأجمعها غير قادرة للـــدفاع عـــن مصالحها أو الذود عن حماها، وأن خلافات المسلمين فيما بينـــهم

تجعلهم جميعا لقمة سائغة للطامعين، وتسلب منهم الرعب والمهابة فهم على كثرة أعدادهم أصبحوا غثاء كغثاء السيل وقد دب فيهم الوهن، وبسبب الإحباط لدى بعض الفئات منهم أصبح العنف هو الوسيلة وفي كثير من الأحيان يكون العنف موجها إلى بلادهم أنفسهم والإرهاب ضد دولهم، وهكذا يخربون بيوتهم بأنفسهم ويهيئون المناخ لتدخل قوى خارجية فالله المستعان.

إن الأساليب القديمة والتقليدية للتغيير كانت الانقلابات العسكرية، أو الاستعانة بالدول الأجنبية،أو إحداث ثورة أيديولوجية،إسلامية،أو غير إسلامية، لكنها الآن فقدت أهميتها، وإن الدول الغربية شديدة الحساسية تجاه الثورات الإسلامية، وأن تجارب إيران والجزائر وغزة ليست بعيدة عن الواقع.

إن الإعصار الجماهيري الكاسح لإسقاط الأنظمة البوليسية تجربة جديدة ونمط جديد يدعو إلى التنبه والاعتبار من كافة الدول.

جزل الكلام في عزل الإمام:

ومن القضايا الشائكة والحساسة مسألة التعامل مع أئمة الجور أو الأنظمة السياسية الفاسدة التي تمارس أنواعا من الظلم مع

الشعوب، وتستولي على خيرات البلاد، وتنهب أموال العباد جهارا نهارا من غير أن يكون هناك رادع من دين أو ضمير.

فما هو الموقف الشرعي الصحيح تجاه هؤلاء الظلمة والطغاة، هل يجوز الخروج عليهم؟ أو يجب الصبر على ظلمهم وطغيانهم مهما بلغ الأمر من بطش وتنكيل وإبادة جماعية وتقتيل؟

قد أصبح هذا الموضوع من أهم قضايا العصر بعد الأحداث التي شهدتها – ولا تزال تشهد– بعض دول العالم العربي والإسلامي، وقد انشق فيه صف العلماء فانقسموا إلى فئتين: فئة ترى جواز الخروج والوقوف بكل قوة ضد ظلم الحكام، وفئة أخرى ترى عدم الخروج ولا القيام بالمظاهرات والاحتجاجات ولو كانت سلمية ضد أي حاكم من الحكام مهما بلغ جوره وازداد طغيانه، بل يجب الصبر عليه ولو جلد ظهر الناس وأخذ أموالهم.

وقد ألفت قديما وحديثا كتب عديدة في بيان "الأحكام السلطانية" أو "السياسة الشرعية" لكن تطبيقها على الأوضاع الراهنة فيه كثير من المجازفة لأنها لم تتناول الجوانب الكثيرة من المسألة، كما أنها لم تستوعب أحكام الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في ضوء النصوص الشرعية المتعارضة والأحاديث النبوية الواردة المختلفة.

ولعل من أحسن من تناول هذا الموضوع بكافة جوانبه هو الإمام العلامة الفقيه الشيخ أشرف علي التهانوي المتوفى سنة ١٣٦٢هـ في رسالته بعنوان: "جزل الكلام في عزل الإمام".

ونظرا لأهمية هذه الرسالة والتباس الأمر على كثير من فقهاء ومفكري هذا العصر نقدم فيما يلي خلاصة ما جاء في تلك الرسالة منقولة إلى اللغة العربية معتمدا في ذلك على ما كتبه مؤلف تكملة فتح الملهم بشرح صحيح مسلم مع مراجعة الأصل.

إن الأحاديث الواردة في هذا الباب كالتالي:

١- عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: بايعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم على السمع والطاعة في العسر واليسر، والمنشط والمكرة وعلى أثرة علينا، وعلى أن لا ننازع الأمر أهله، وعلى أن نقول بالحق أينما كنا، لا نخاف في الله لومة لائم.

وفي رواية وعلى أن لا ننازع الأمر أهله إلا أن تروا كفرا بواحا، عندكم من الله فيه برهان([1]).

٢- عن عوف بن مالك الأشجعي رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: خيار أئمتكم

(١) رواه البخاري برقم ٧١٩٩ ومسلم برقم ١٧٠٩.

الذين تحبونهم ويحبونكم، وتصلون عليهم ويصلون عليكم.

وشرار أئمتكم الذين تبغضونهم ويبغضونكم، وتلعنونهم ويلعنونكم.

قال: قلنا يا رسول الله' ألا ننابذهم عند ذلك قال: لا، ما أقاموا فيكم الصلاة، لا ما أقاموا فيكم الصلاة.

ألا من ولي عليه من وال فرآه يأتي شيئا من معصية الله فليكره ما يأتي من معصية الله، ولا ينزعن يدا من طاعة([1]).

٣- عن أبي ذر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من فارق الجماعة شبرا خلع ربقة الإسلام من عنقه([2]).

٤- عن عرفجة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إنه ستكون هنات وهنات، فمن أراد أن يفرق أمر هذه الأمة وهي جميع فاضربوه بالسيف، كائنا من كان([3]).

---

(١) رواه مسلم برقم ٤٨٠٥.

(٢) رواه أحمد وأبو داود برقم ٤٧٥٨.

(٣) رواه مسلم برقم ٤٧٩٦.

٥- عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: من رأى منكم منكرا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان(١).

ففي الحديث الأول جعل الكفر البواح حدا للخروج على الإمام.

وفي الحديث الثاني ترك الصلاة جعل حدا لذلك.

أما في الحديث الثالث اعتبرت مفارقة الجماعة ولو بقدر شبر في حكم ترك الإسلام، وحكم ترك الإسلام معروف والإمام أيضا داخل في عمومه.

وكذلك الحديث الرابع جعل تفريق الجماعة سببا مبيحا للضرب بالسيف، وفيه أيضا التفريق عام وكذلك أيضا عام ولو كان إمام.

أما الحديث الخامس فقد أطلق فيه الأمر بالتغيير باليد للمنكر أي منكر كان، وأيا كان منكرا عليه إماما أو غيره، كما أن التغيير باليد أيضا عام سواء كان بالسيف أو بغيره.

---

(١) رواه مسلم برقم ١٧٨ وراجع مشكاة المصابيح باب الاعتصام بالكتاب والسنة وباب الأمر بالمعروف وكتاب الإمارة والقضاء.

فمن الواضح أن الحديث الثالث والرابع والخامس تنفي ما جاء في الحديث الأول والثاني من التحديد بالكفر وبترك الصلاة فما هو وجه التوفيق بين تلك الأحاديث؟

وهناك أحاديث أخرى ذات صلة بالموضوع من بينها:

عن علي رضي الله عنه قال: بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم سريّة واستعمل عليهم رجلا من الأنصار، وأمرهم أن يسمعوا له ويطيعوا فأغضبوه في شيء فقال: أوقدوا نارا، فأوقدوا ثم قال: ألم يأمركم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن تسمعوا لي وتطيعوا؟ قالوا بلى. قال: فادخلوها قال: فنظر بعضهم إلى بعض. فقالوا: إنما فررنا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم من النار، فكانوا كذلك. وسكن غضبه، وطفئت النار، فلما رجعوا ذكروا ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم فقال:

لو دخلوها ما خرجوا منها، إنما الطاعة في المعروف(١).

وبالجمع بين هذا الحديث، وأحاديث الباب الأخرى التي تؤكد طاعة الأمير يتضح: أن المسلم يجب عليه أي يطيع أميره في الأمور المباحة فإن أمر الأمير بفعل مباح يجب عليه مباشرته وتنفيذ ما أمره، وكذلك إن نهى عن أمر مباح لا يجوز له ارتكابه بل يجب

---

(١) رواه البخاري برقم ٤٣٤٠.

الالتزام بما أمر به الأمير، لأن الله سبحانه يقول:

{أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم} (النساء: ٥٩)

فلو كان المراد من إطاعة أولى الأمر في الواجبات الشرعية فقط لما كان هناك داع لاستقلال ذكرهم في الآية، لأن الإطاعة في الواجبات الشرعية، إطاعة الله ورسوله، وليس إطاعة الأمير، فإفراد ذكر "أولى الأمر" في الآية يدل على إطاعتهم في الأمور المباحة.

وبناء على ذلك صرح الفقهاء بأن طاعة الإمام فيما ليس بمعصية واجبة.

يقول ابن عابدين:

إذا أمر الإمام بالصيام في غير الأيام المنهية وجب لما قدمناه في باب العيدين من أن طاعة الإمام فيما ليس بمعصية، واجبة(١).

كذلك نقل ابنه العلامة علاء الدين عن البيري: "إن الحاكم لو أمر أهل بلدة بصيام أيام بسبب الغلاء، أو الوباء وجب امتثال أمره"(٢).

لكن هذه الطاعة مشروطة بأن لا يكون أمر الحاكم في معصية، كذلك مشروطة بأن يكون الأمر صادرا عن مصلحة لا

---

(١) رد المحتار ٧٩٢/١.

(٢) قرة عيون الأخبار ٥٤/٢.

عن هوى وظلم، لأن الحاكم لا يطاع لذاته، وإنما يطاع لأنه متولّ لمصالح العامة.

فإن أمر بشيء إتباعا لهوى نفسه دون النظر إلى مصالح المسلمين فإنه أمر يعتبر صادرا من نفسه وذاته لا من حيث كونه حاكما فلا يكون بدرجة أمره الصادر لكونه حاكما يراعي مصالح المسلمين، لذلك يقول الفقهاء: "تصرف الإمام على الرعية منوط بالمصلحة"(١).

وتفريعا على ذلك قرر الفقهاء أن حكم الحاكم رافع للخلاف في الأمور المجتهد فيها، فمتى صادف أمره فصلا مجتهدا فيه، نفذ، ووجب إتباعه ولو كان الرجل لا يرى رأيه في تلك المسألة، ولذلك لما أمر هارون الرشيد أبا يوسف ومحمدا أن يكبّرا في العيدين بتكبيرات جده، امتثلا بأمره مع أنهما لا يريان التكبيرات الزوائد على الست. ذكره ابن عابدين في باب العيدين(٢).

ويقول الإمام السرخسي رحمه الله في شرح السير الكبير: إن المختلف فيه بإمضاء الإمام يصير كالمتفق عليه، ولذلك إذا أمضى

---

(١) وهذه قاعدة فصلها ابن نجيم في الأشباه والنظائر ١/١٥٧.

(٢) رد المحتار ١/٧٨٠.

القاضي بيعا فاسدا صح البيع([1]).

ويقول ابن قدامة: إن فعل الإمام كحكم الحاكم في نفاذه في الأمور المجتهد فيها([2]).

وإذا اختلفت الآراء في أن أمر الحاكم مبني على المصلحة أولا؟ فإن رأي الحاكم قاض على رأي غيره، يقول الإمام السرخسي:

"إن الأمير إذا أمرهم بشيء لا يدرون أينتفعون به أم لا؟ فعليهم أن يطيعوه لأن فرضية الطاعة ثابتة بنص مقطوع به([3]).

أما المبدأ الثاني الذي يستفاد من أحاديث الباب فهو:

أنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق فلا يطاع أمير ولا إمام إذا أمر بما هو معصية، وإن هذا المبدأ لو طبق في بلاد المسلمين لأغنى من كثير من الإضرابات والاضطرابات الجارية في كثير من البلدان، ولاضطرت به الحكومات على تطبيق الشريعة الإسلامية في جميع نواحي الحياة.

وهذا هو الطريق المشروع للضغط على الحكومات في سبيل

---

(١) شرح السير الكبير ٢/٨- ١٣٢.

(٢) المغني ٢/٥٨٧.

(٣) شرح السير الكبير ١/١١٢.

إقامة شرع الله، وتطبيق أحكامه.

وأما ما تعلمه الناس من الغرب من وسائل الضغط على الحكومات كالإضرابات، والمظاهرات، وسد الشوارع، وسفك الدماء، وتخريب العمران فليس من الإسلام في شيء.

و روي مسلم بسنده: عن أبي أمية دخلنا على عبادة ابن الصامت رضي الله عنهما وهو مريض فقلنا: حدثنا أصلحك الله بحديث ينفع الله، به سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال:

دعانا رسول الله صلى الله عليه وسلم فبايعناه فكان فيما أخذ علينا: أن بايعنا على السمع والطاعة في منشطنا ومكرهنا، وعسرنا ويسرنا، وأثرة علينا، وأن لا نتنازع الأمر أهله قال: "إلا أن تروا كفرا بواحا، عندكم من الله فيه برهان"

استدل بهذا الحديث جمهور العلماء على أنه لا يجوز الخروج على السلطان الجائر والفاسق إلا أن يظهر منه كفر صريح.

يقول العلامة ابن حجر في الفتح:

قال ابن بطال: في الحديث حجة في ترك الخروج على السلطان ولو جار، وقد أجمع الفقهاء على وجوب طاعة السلطان المتغلب والجهاد معه، وأن طاعته خير من الخروج عليه لما في ذلك

من حقن الدماء وتسكين الدهماء، وحجتهم هذا الخبر وغيره مما يساعده ولم يستثنوا من ذلك إلا إذا وقع من السلطان الكفر الصريح فلا تجوز طاعته في ذلك بل تجب مجاهدته لمن قدر عليها(١).

ويظن البعض بمثل هذه الأحاديث أن الإمام الجائر لا يجوز الخروج عليه في حال من الأحوال مادام يتسمي باسم الإسلام لكن الأمر ليس على هذا الإطلاق خاصة على مذهب الإمام أبي حنيفة النعمان رحمه الله تعالى.

يقول الشيخ العلامة الفقيه محمد تقي العثماني بعد ذكر هذه التفاصيل:

فالذي يظهر لهذا العبد الضعيف عفا الله عنه بعد مراجعة النصوص الشرعية وكلام الفقهاء المحدثين في هذا الباب. والله أعلم

إن فسق الإمام على قسمين:

الأول: ما كان مقتصرا على نفسه فهذا لا يبيح الخروج وعليه يحمل قول من قال: إن الإمام الفاسق، والجائر لا يجوز الخروج عليه.

والثاني: ما كان متعديا وذلك بترويج مظاهر الكفر وإقامة

---

(١) فتح الباري ١٣/٧.

شعائره، وتحكيم قوانينه، واستخفاف أحكام الدين، والامتناع من تحكيم شرع الله مع القدرة على ذلك لاستقباحه، وتفضيل شرع غير الله عليه فهذا يلحق بالكفر البواح ويجوز حينئذ الخروج بشروطه([1]).

يقول العلامة ابن حجر:

الحسن بن صالح كان يرى السيف يعني يرى الخروج بالسيف على أئمة الجور وهذا مذهب للسلف قديم، لكن استقر الأمر على ترك ذلك لما رأوه قد أفضى إلى أشد منه، ففي وقعة الحرة ووقعة ابن الأشعث وغيرهما عظة لمن تدبر، والحسن مع ذلك لم يخرج على أحد([2]).

ويقول في شرح حديث ابن عباس رضي الله عنه:

قال ابن بطال: في الحديث حجة ترك الخروج على السلطان ولو جار.

وقد أجمع الفقهاء على وجوب طاعة السلطان المتغلب، والجهاد معه، وأن طاعته خير من الخروج عليه لما في ذلك من حقن الدماء، وتسكين الدهماء، وحجتهم هذا الخبر وغيره مما

---

(١) تكملة فتح الملهم ١٨٥/٣.

(٢) تهذيب التهذيب ٢٤٨/٢ ترجمة الحسن بن صالح.

يساعده، و لم يستثنوا من ذلك إلا إذا وقع من السلطان الكفر الصريح، فلا تجوز طاعته في ذلك، بل تجب مجاهدته لمن قدر عليها.

وإن الإمام أبو بكر الجصاص الرازي في تفسير قوله تعالى: {لا ينال عهدي الظالمين} يبرهن على ما ذهب إليه الإمام أبو حنيفة من جواز الخروج على أئمة الجور.

ويقول الإمام السرخسي في شرح السير الكبير:

وبهذا اللفظ يستدل من يزعم أن الحاكم ينعزل بالجور، وليس هذا بمذهب لنا، وقد بينا ذلك فيما أملينا من شرح الزيادات في باب التحكيم(١).

وقد نقل الحافظ عبد القادر القرشي في كتابه "الجواهر المضيئة من طبقات الحنفية" في ترجمة إبراهيم بن ميمون الصائغ المروزي، الذي يروى الحديث عنه وعن عطاء ويقول عنه السمعاني: كان فقيها فاضلا، قتله أبو مسلم الخراساني بمرو سنه ١٣١هـ، وقد روي له النسائي وأبو داود.

ويقول عنه ابن المبارك: لما بلغ أبا حنيفة قتل إبراهيم الصائغ بكى حتى ظننا أنه سيموت فخلوت به فقال: والله كان رجلا

---

(١) شرح السير الكبير ٨٦٩/٣ فقره ١٥٦٧.

عاقلا ولقد كنت أخاف عليه هذا الأمر.

قلت وكيف كان سببه؟

قال: كان يقدم ويسألني، وكان شديد البذل لنفسه في طاعة الله، وكان شديد الورع.

سألني عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، إلى أن اتفقنا على أنه فريضة من الله تعالى فقال لي: مديدك حتى أبايعك، فأظلمت الدنيا بيني وبينه.

قلت: ولم؟

قال: دعاني إلى حق من حقوق الله، فامتنعت عليه، وقلت له:

إن قام به رجل واحد قتل، ولم يصلح للناس أمر، ولكنه إن وجد عليه أعوانا صالحين، ورجلا يرأس عليهم، مأمونا في دين الله.

وقال: وكان يقتضي ذلك كلما قدم عليّ تقاضي الغريم الملحّ، كلما قدم على تقاضاني فأقول له:

هذا أمر لا يصلح بواحد، ما أطاقته الأنبياء، حتى عقدت عليه السماء.

وهذه فريضة ليست كالفرائض، يقوم له الرجل وحده، وهذا متى أمر به الرجل وحده أشاط بدمه، وعرّض نفسه للقتل، فأخاف أن يعين على قتل نفسه، ولكن ينتظر، فقد قالت الملائكة {أتجعل

فيها} الآية([1]).

وقد أبدع الإمام أشرف علي التهانوي رحمه الله في بيان ضوابط عزل الحاكم في ضوء الأحاديث المذكورة ونصوص الشريعة الأخرى وخلاصة ما قاله في رسالته اللطيفة هي:

إن الأمور المخلة بالإمامة سبعة أشياء:

١- أن يعزل الإمام نفسه بلا سبب وهذا فيه خلاف بين العلماء([2]).

٢- أن يطرأ عليه ما يمنعه من أداء وظائف الإمامة كالجنون، والعمي، أو الصمم، أو البكم، أو وقوعه في أسر لا يرجى خلاصه، وهذا ما ينحل به عقد الإمامة فينعزل الإمام في هذه الصور.

٣- أن يطرأ عليه الكفر، سواء كفر تكذيب وجحود، أو كفر عناد ومخالفة، أو كفر استخفاف أو استقباح لأمور الدين.

وفي جميع هذه الصور يعزل الإمام، وينحل عقد الإمامة، فإن أصر على بقائه إماما وجب على المسلمين

---

(١) الجواهر المضيئة ١/١١٣- ١١٤.

(٢) شرح المقاصد ٢/٢٨٢.

عزله بشرط القدرة على ذلك، ويشـــترط في ذلـــك أن يكون الكفر متفقا عليه بدليل قوله صلى الله عليه وسلم في حديث الباب (إلا أن تروا كفرا بواحا، عندكم من الله فيه برهان).

وكما يشترط قطعية الكفر، يشترط أيضا أن يكـــون صدوره منه قطعيا كرؤية العين والمشاهدة، ولا يكتفي في ذلك بالروايات الظنية، بدليل قولـــه "إلا أن تـــروا" والمراد به رؤية العين بدليل تعديته إلى مفعول واحد.

وقد تختلف الآراء في كون الصادر من السلطان كفرا، وفي دلالته على الكفر، أو في ثبوته بالقرائن الخاصة بحاله أو بمقاله، أو في قطعية الكفر الصادر منه، فمن اتخذ رأيا في مثل هذه الحالة بينه وبين الله فيعتبر معذورا مجتهـــدا لايلام على رأيه، وعلى هذا يحمل اختلاف الصـــحابة والتابعين رحمهم الله، وخروج بعضهم في مناصرة طرف ضد طرف آخر، وامتناع البعض منهم لالتباس الأمر.

إن وجوب الخروج ضد ولي الأمر في هذه الحالة مشروط بالقدرة، وبأن لا تحدث به مضرة أكبر من بقائه.

يقول الشريف الجرجاني في شرح المواقف:

وللأمة خلع الإمام وعزله بسبب يوجبه مثل أن يوجد منه ما يوجب، اختلال أحوال المسلمين، وانتكاس أمور الدين، وإن أدى خلعه إلى فتنة احتمل أدنى المضرتين([1]).

٤- إذا كان الحاكم أو السلطان يرتكب فسقا مقتصرا ضرره على نفسه كالزنا، وشرب الخمر، وما إلى ذلك فإنه لا ينعزل بنفسه لكنه يستحق العزل فعلى الأمة أن تعزله إلا أن تترتب على عزله فتنة.

يقول الحصكفي في الدر المختار:

"يكره تقليد الفاسق ويعزل به إلا لفتنة" يقول ابن عابدين معلقا عليه: ويعزل به أي بالفسق لو طرأ عليه، المراد أنه يستحق العزل كما علمت آنفا ولذا لم يقل ينعزل([2]).

يقول الإمام ابن الهمام في المسايرة:

"وإذا أقلد عدلا ثم جار وفسق، لا ينعزل، ولكن يستحق العزل إن لم يستلزم فتنة"([3]).

---

(١) شرح المواقف ٨/٣٥٣.

(٢) رد المحتار ٣/٣٤٠.

(٣) المسايرة مع المسامرة /٣٢٨.

وحاصله أنه لا يجوز الخروج عليه في هذه الصورة لما فيه من سفك الدماء، وإثارة الفتنة، ولو خرج عليه جماعة من المسلمين حل لنا قتالهم، ومن دعاه الإمام إلى ذلك افترض عليه إجابته، لأن طاعة الإمام فيما ليس بمعصية فرض، بشرط أن يكون قادرا على ذلك وإلا لزم بيته كما في الدر المختار.

٥- إذا كان الحاكم يرتكب فسقا يتعدي أثره إلى أموال غيره، بأن يظلم الناس في أموالهم ولكن بتأويل، نحو فرض الضرائب والجبايات بحجة الحفاظ على مصالح الناس، في هذه الحالة لا يجوز الخروج عليه، وهو لا ينعزل بمثل هذا التصرف وإطاعته تكون واجبة.

٦- أما إذا كان الحاكم يظلم الناس في أموالهم من غير تبرير، أو إبداء شبهة جواز الأخذ فللمظلوم حق الدفاع عن ماله، ولو أدى ذلك إلى قتال وإن هذا القتال لا يعتبر خروجا على الحاكم بل هو حق مشروع للدفاع عن ماله، ويجوز له أن يصبر أملا في الأجر عند الله سبحانه وتعالى، فإذا توقف الحاكم عن الظلم يجب عليه أن يتوقف عن القتال، يقول العلامة ابن عابدين

نقلا عن فتح القدير لابن الهمام:

"ويجب على كل من أطاق الدفع أن يقاتل مع الإمام إلا إن أبدوا ما يجوز لهم القتال كأن ظلمهم، أو ظلم غيرهم ظلما لا شبهة فيه، بخلاف ما إذا كان الحال مشتبها أنه ظلم، مثل تحميل بعض الجبايات التي للإمام أخذها، وإلحاق الضرر بها لدفع ضرر أعم منه".

هذا حكم المظلوم الذي يقاتل دفعا للظلم عن نفسه، أما غير المظلوم فهل يجوز له أن ينصر المظلوم ضد الحاكم أو الإمام؟

اختلفت فيه عبارات الفقهاء فذكر في فتح القدير أنه يجب على غير المظلوم أن يعين هذا المظلوم المقاتل حتى ينصفه الإمام ويرجع عن جوره.

وذكر في جامع الفصولين والمبتغي، والسراج أنه لا ينبغي للناس معاونة السلطان، ولا معاونتهم، ووفق ابن عابدين بين القولين بأنه يجب إعانتهم إذا أمكن امتناعه عن بغيه، وإلا فلا([1]).

فالقتال معه بناء على دفع الظلم عن نفسه للأحاديث

---

(١) يراجع رد المحتار ٣/٣٤١ في باب البغاة.

التي وردت في إباحة القتال للدفاع عن النفس وعن المال، ولكن لما كان هذا القتال يشابه الخروج صورة فتركه أولى استبراء للدين، ولما ورد في لزوم الصبر من حديث حذيفة بن اليمان رضي الله عنه أخبر فيه عن أئمة الجور وفيه:

"قلت: كيف أصنع يا رسول الله إن أدركت ذلك؟ قال تسمع وتطيع وإن ضرب ظهرك، وأخذ مالك فاسمع وأطع. فالمراد من قوله "اسمع وأطع" نهيه عن الخروج.

٧- أما إذا كان الحاكم يرتكب فسقا متعديا إلى دين الناس، فيكرههم مثلا على المعاصي، ويدخل بعض أقسامه في الكفر حقيقة، أو حكما، وذلك بأن يصر على تطبيق القوانين المخالفة للشريعة الإسلامية إما تفضيلا لها على شرع الله، وذلك كفر صريح، أو توانيا وتكاسلا عن تطبيق شرع الله بما يغلب منه الظن، إن استمرار العمل ضد أحكام الشريعة يحدث استخفافا لها في القلوب، فإن مثل هذا التواني والتكاسل إن لم يكن كفرا صريحا بحيث يكفر به مرتكبه ولكنه في حكم

الكفر بدليل ما ذكره الفقهاء من أنه لو ترك أهل بلدة، الأذان، حل قتالهم لأنه من أعلام الـــدين وفي تركـــه استخفاف ظاهر به([1]).

فجواز الخروج دائما مشروط بأن يرجى عقد الإمامـــة لرجل صالح، توجد فيه شروط الإمامة، أما إذا صـــار الأمر من جائر إلى جائر, أو استلزم ذلك مضرة أكـــبر مثل استيلاء الكفار على بلاد المســـلمين فـــلا يجـــوز الخروج إطلاقا.

ويبقي مجال لاختلاف الآراء في تقدير الظروف وتحديد ما يبيح الخروج وما لا يبيح في ضوء ما سبق من الاحتمالات. والله أعلم،

في السياق نفسه يرى الإمام ابن تيمية (٦٦١– ٧٢٨) رحمه الله:

إن المشهور من مذهب أهل السنة أنهم لا يرون الخروج على الأئمة وقتالهم بالسيف، وإن كان فيهم ظلم، لأن الفساد في القتال في الفتنة أعظم من الفساد الحاصل بظلمهم بدون قتال ولا فتنـــة، فيدفع أعظم الفسادين بالتزام الأدنى([2]).

ويقول الإمام الغزالي رحمه الله:

---

(١) راجع رد المحتار ٣٨٤/١.

(٢) منهاج السنة ٨٧/٢.

والذي نراه ونقطع أنه يجب خلعه إن قدر على أن يستبدل من هو موصوف بجميع الشروط من غير إثارة فتنة ولا تهييج قتـــال، وإن لم يكن بتحريك قتال وجبت طاعته وحكم بإمامته([1]).

هذه وغيرها من تصريحات الفقهاء يجعل الحكم في مستجدات هذا العصر صعبا على العلماء، ومن هنا يوجـــد الاخـــتلاف في مواقفهم لكن تبقى في أعناق العلماء مسئولية إيضاح:

- أن الظلم ظلمات يوم القيامة، وأن أرواح الناس وأموالهم وأعراضهم أمانة في أيدي أولياء الأمور يجـــب حمايتـــها، والذود عن حمي الدين واجب عليهم.
- وإن الواجب على الجميع تحصيل المصـــالح وتكميلـــها، وتعطيل المفاسد وتقليلها، فإذا تعارضت كـــان تحصـــيل أعظم المصلحتين بتفويت أدناهما، ودفع أعظم المفســـدتين مع احتمال أدناهما.
- إن حق إبداء الرأي أو المعارضة من أجل الإصلاح' ودفع الباطل' والقضاء على المنكر' والأمر بالمعروف مضمون في الإسلام.
- قهر الشعوب، وتحطيم إرادة الناس، وممارسة الظلم تؤدي

(١) الاقتصاد في الاعتقاد /١٣٧.

إلى الخراب والدمار وتوصل النظام إلى التفكك والانهيار.

- إن في توفير العدالة الاجتماعية ضمانا لأمـــن المجتمعـــات وراحة وسعادة للعامة والقيادات.
- إن الحرية غير المنضبطة تؤدي إلى تفكك المجتمع وانهيـــاره الأخلاقي والسلوكي، والإخلال بالنظام العام.
- ينبغي أن تكون قولة أبي بكر الصديق رضي الله عنه "يا أيهـــا الناس إني وليت عليكم ولست بخيركم فإن أحسنت فتابعوني، وإن صدفت فقوّموني، القوي فيكم ضعيف حتى آخذ الحق منه، والضعيف فيكم قوي حتى آخذ الحق له، أطيعوني مـــا أطعت الله ورسوله، فإن عصيت فلا طاعة لي عليكم".

شعار كل حاكم ومسئول... والله ولي التوفيق،،،

قضية فلسطين
وأبعادها السياسية والجغرافية

إن أرض فلسطين التي تقع بين لبنان شمالا، وسوريا والمملكة الأردية الهاشمية شرقا والبحر المتوسط غربا، ومصر جنوبا، تحتل مكانة استراتيجية هامة في خريطة العالم، من أجل ذلك ظلت تتعرض لغزوات أجنبية منذ أقدم العصور، مع كونها أرضا عربية لحما ودما منذ أن عرفها التاريخ من نحو أربعين قرنا قبل الميلاد، فقد أثبت عباقرة رجال التاريخ أمثال المؤرخ الغربي الأستاذ بريستد، والمؤرخ العربي ابن خلدون وغيرهما أن الكنعانيين الذين عاشوا فيها كانوا من العرب البائدة الذين هاجروا إليها من شبه الجزيرة العربية، فلا شك في كون أرض فلسطين عربية منذ أن قدمها إلينا التاريخ.

وفي عام ٢٢٠ق.م نزح إليها من العراق سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام، وإلى ابنه إسماعيل ينتسب محمد صلى الله عليه وسلم، ويعتبره العرب جدهم الأعلى، وأنجب ابنه إسحاق يعقوب

الذي يعرف بإسرائيل وأرسل الله موسى إلى بني إسرائيل في أرض مص، واتباع موسى هم يعرفون باسم اليهود، وهم يتكونون الآن من جنسيات متعددة، اعتنقت الديانة اليهودية، وآمنت بتوراة موسى عليه الصلاة والسلام.

دخل اليهود أرض فلسطين بعد موت موسى حوالي عام ١١٨٦ق.م بقيادة يوضع بن نون، وتأسست لهم دولة أيام داود وسليمان، غير أن دولتهم لم تدم إلا بضع سنوات، وبموت سليمان عام ٩٣٥ق.م انتهت عمليا دولة اليهود في فلسطين، واحتلها الآشوريون ٧٢١ق.م، ثم البابليون ٥٥٧ق.م، وأخذ البابليون إلى العراق خمسين ألفا من اليهود الذين ظلوا بالأسر البابلي مدة طويلة.

وخضعت فلسطين بعد ذلك لحكم الفرس، ثم الاسكندر، ثم غزاها الرومان في أوائل القرن الميلادي الأول. وفي عصر الرومان لقي اليهود الباقون في فلسطين اضطهادا عنيفا وضخما، وتمكن درهان الحاكم الروماني من القضاء على بقايا نفوذهم عام ١٣٥م. وفي عام ٦٣٦ أتم العرب المسلمون فتح فلسطين لتعود إلى عربيتها الأصلية([1]).

---

(١) راجع فتوح البلدان للبلاذري، دار النشر للجامعيين.

لم تزل فلسطين عربية رغم تتابع غزوات الصليبيين والتتار والمغول والبابليين، وفي عام ١٤٥٧م جعل الأتراك العثمانيون أرض فلسطين جزءاً من ولايتي بيروت ودمشق العربيتين، وبقيت سلطتهم فيها حتى نهاية الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٨م، حينما احتلها الحلفاء، وظلت منذ ذلك التاريخ تحت الانتداب البريطاني الذي سلبها متآمرا مع الامبريالية الأمريكية والدول الأخرى الاستعمارية لعصابات الصهيونية عام ١٩٤٨م، لتكون دولة أسموها: "إسرائيل".

فمن هذه اللمحة التاريخية السريعة، ومن هذا الاستعراض العاجل السريع، نرى أن اليهود لم يقيموا لهم دولة في فلسطين إلا لبضع سنوات اغتصبوها فيه من العرب أصحابها الحقيقيين، وأن أرض فلسطين طوال تاريخها الطويل ورغم ما تعرضت للغزوات المتلاحقة ظلت عربية عبر العصور.

حركة الصهيونية وتطورها:

الصهيونية حركة عنصرية تعتمد في بقائها وتخطيطها على أساسها العنصري القائم على التفوق العنصري، وهي تنتسب إلى "جبل صهيون" في جنوب بيت المقدس، وقد ورد ذكر هذا الجبل

في مواضع عديدة من التوراة، فهي حركة يهودية تسعى بكل الوسائل إلى إعادة مجد بني إسرائيل، وبناء هيكل سليمان على أنقاض بيت المقدس، والسيطرة على العالم كله، وهي حركة قديمة ذات جذور تاريخية عريقة، كانت ترمي منذ أقدم العصور إلى تنفيذ هذا المخطط، غير أن أخطر تحرك صهيوني بدأ منذ زمن الصحفي النمساوي تيودور هرتزل (١٨٦٠- ١٩٠٤م)، حيث إنه قد وضع كتابا أوضح فيه أهداف الصهيونية في تجميع اليهود وتوطينهم في دولة يهودية، كما أنه حاول أن يستدر عطف السلطان عبد الحميد العثماني، فقابله في مايو عام ١٩٠١، وأغسطس عام ١٩٠٢م بهدف أن يحصل منه على وعد سلطاني باستيطان اليهود بفلسطين، ولكن محاولته أخفقت لعدم موافقة السلطان وفطنته لأبعاد المخطط الصهيوني في تهويد فلسطين.

وبعد ذلك حاول هرتزل النفوذ إلى بريطانيا لإقامة دولة يهودية في شبه جزيرة سينا، غير أن عدم وجود المياه في هذه المنطقة حال دون تنفيذ هذا المشروع. وعرضت بريطانيا فكرة إقامة دولة يهودية في أوغندا، غير أن المؤتمر اليهودي السادس الذي انعقد في ١٩٠٣م رفض المشروع، وأصر أن تكون فلسطين وطنا قوميا لليهود. وتوفي هرتزل عام ١٩٠٤م، والحقيقة التي تبعث على

العجب أن بريطانيا ما كانت حينـــذاك تملـــك أرض فلســـطين، والصهيونية ما كانت تستحقها حتى تصح منها هـــذه العـــروض والاتفاقيات.

ولابد هنا أن نشير إلى أن حركة هرتزل كانت تركـــز أولا على عقد مؤتمرات سنوية تضم كبار الصهاينة، وقد بدأت فعـــلا هذه المؤتمرات عام ١٨٩٧م في مدينة بال بسويسرا بعقد أول مؤتمر صهيوني ضم الكثير من الصهاينة، وتوصل إلى قـــرارات علنيـــة وسرية، أما القرارات التي أعلنت فكان من أهمها تأســـيس دولـــة لليهود في فلسطين، وحث اليهود على شـــراء الأرض في تلـــك المنطقة، وتنمية مواردهم الماليـــة، وتشـــجيع الهجـــرة إلى أرض فلسطين، وإنعاش اللغة العبرية، وكان كبار اليهود وأثريـــاؤهم في أمريكا والدول الأوربية الأخرى في مساندة الحركة الصـــهيونية، والأسرة التي تولت كبرها هي أسرة روتشيلد المعروفة.

أما المخططات أو القرارات التي أخفيت فهي ما أطلق عليـــه فيما بعد بروتوكولات حكماء صهيون، ولم تبق سرا بل نشـــرت باللغة الروسية والإنجليزية والعربية وغيرها من لغات العالم.

والواقع أن تعاليم التلمود وبروتوكولات حكماء صهيون إلى جانب التوراة تعد من الأسس التي تبتني عليها الصهيونية.

وعد بلفور وصك الانتداب:

منذ عام ٥٩٧ق.م حينما كان اليهود في أسر بابل بدأوا يحلمون بالعودة إلى جبل صهيون بفلسطين، وتأصلت هذه الأفكار كلما واجهوا حوادث الضغط والاضطهاد وقد أدى التلمود أقدس كتبهم الدينية أكبر دور في رسم طريق العودة إلى فلسطين، ورغم أن جماعة من حاخامات اليهود قامت بتأليفه في القرن الخامس الميلادي، ظل التلمود سرا مطمورا لم يذع إلا في القرن التاسع عشر وقرب نهايته.

لم تزل الحركة الصهيونية طوال الحرب العالمية الأولى في خدمة القوى الاستعمارية البريطانية، واستطاعت بفضل تسللها ونفوذها إلى القادة البريطانيين أن تحصل على وعد من بلفور وزير الخارجية البريطانية، وهذا نص ذلك الوعد المشئوم.

"إن حكومة جلالة الملك تنظر بعين العطف إلى إقامة وطن قومي في فلسطين للشعب اليهودي، وسوف تبذل أقصى جهدها لتحقيق هذه الغاية"([1]).

وما كان يحق لوزير الخارجية البريطاني أن يعطي هذا التصريح

---

(١) عمر رشدي، الصهيونية وربيبتها إسرائيل / ٧٨.

عن فلسطين لأحد رجال المال اليهودي، إذ إن فلسطين لم تكن حينذاك مستعمرة بريطانية، وما كانت بريطانيا تملكها. وانتهت الحرب العالمية الأولى بهزيمة ألمانيا وحلفائها، وعقد مؤتمر الصلح، شارك فيه وفد عربي لمطالبة الحلفاء باستقلال البلاد العربية في آسيا ووحدتها تحقيقا للوعود المتكررة.

وقد طالب المؤتمر الصهيوني المنعقد آنذاك من مؤتمر فرساي بإنشاء الدولة اليهودية في فلسطين وشرقي الأردن وجنوبي لبنان، وكان من الطبيعي أن تعمل الدول الاستعمارية المتحالفة مع الصهيونية العالمية لإقامة دولة يهودية تكون أداة للاستعمار في تلك المنطقة ومأوى للمشردين من اليهود، وتعتبر ركيزة استعمارية في الشرق الأوسط.

فازت الصهيونية العالمية في مؤتمر فرساي بنصب الأسد، ففي يونيو ١٩١٩م تم التوقيع في عصبة الأمم، ونص على ما عرف باسم الانتداب، وفي أبريل عام ١٩٢٠ انعقد المجلس الأعلى للحلفاء في سان ريمو، ووافق على وضع فلسطين تحت الانتداب البريطاني، ووضعت بريطانيا صك الانتداب بمعاونة العناصر الصهيونية، جاء فيه:

"إن دول الحلفاء قد وافقت على وعد بلفور، وعلى أن تكون

الدولة المنتدبة مسئولة عن تنفيذه، اعترافا بالصلة التاريخية التي تربط الشعب اليهودي بفلسطين"([1]).

ويتجلى تآمر الصهيونية العالمية بالاشتراك مع القوى الاستعمارية بوضوح في ربط صك الانتداب بوعد بلفور المشئوم الذي يعد باطلا لمخالفته القانون الدولي العام.

وقد اتخذت بريطانيا من الانتداب سبيلا لتمكين الصهيونية من تنفيذ مخططاتها في المنطقة العربية بإنشاء دولة يهودية في فلسطين، فسمحت بهجرة اليهود إلى تلك المنطقة من كل صوب وحدب لترجيح كفة الصهيونيين بازاء العرب. ويجدر بالذكر أن في نهاية الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٨م كان ٩٠% من سكان فلسطين عرباً، يعيشون فيها منذ القرن السابع الميلادي، حينما فتحها المسلمون في زمن عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – وكان عدد اليهود لا يزيد فيها عن ٥٠ ألف نسمة، معظمهم من العرب الذين يدينون بالديانة اليهودية.

والواقع أن السماح للمهاجرين من اليهود كان الهدف منه إحلال اليهود محل الشعب الفلسطيني، وقد عين هربرت صمويل مندوبا ساميا على فلسطين في يوليو ١٩٢٠م بناء على توصية من

---

(١) نفس المصدر /٨٥ .

وايزمين للحكومة البريطانية، فعمل لتنفيذ مخططات الصهاينة وأهدافها وتشجيع الهجرة اليهودية إلى أرض فلسطين بشتى الطرق والوسائل، واتبع أسلوب الامتياز الصارخ القائم على تفضيل اليهود في كافة نواحي الحياة على الأرض الفلسطينية، وحرمان العرب من كافة الحقوق التي يمكن من خلالها أن تكون لهم سيطرة أو نفوذ.

وملخص القول: إن الصهيونية العالمية قد استطاعت بممارسة أساليب الغدر والخيانة والمكر والاستكانة وبنفوذها على الدول المختلفة الاستعمارية وتأثيرها البالغ على الأمم المتحدة أن تصدر قرارا بمشروع تقسيم فلسطين في ٢٩ نوفمبر عام ١٩٤٧م، ولقي هذا القرار معارضة عنيفة من الدول العربية. وفي ١٥مايو عام ١٩٤٨م عند انسحاب الانتداب البريطاني سلمت بريطانية معسكراتها وما فيها من منشآت ومعدات حربية إلى اليهود، كما سلمت إليها أهم المدن العربية كحيفا، ويافا، وطبرية، وبيسان، والأحياء العربية في القدس الجديدة.

صلة الشعب اليهودي بأرض فلسطين:

لا تزال الصهيونية العالمية تنفخ في أبواق الدعايات أن للشعب

اليهودي المختار —في زعمهم – حقا شرعياً في أرض فلسطين، وأن فكرة العودة إلى أرض إسرائيل لها جذور تاريخية عميقة، غير أن الدراسة المحايدة لا تقر لهم بهذا الحق، بل الأصول العلمية الثابتة تفند مزاعم اليهود، وتثبت أن هذه أكذوبة محضة، وأن اليهود ليسوا من أصل فلسطيني واحد.

فإن التاريخ يروي لنا في صدق وحزم ودون تردد أو مواربة أن يهود العالم ينتمون إلى جنسيات مختلفة. فإن كثيرا من الأوروبيين وغيرهم قد اعتنقوا الدين اليهودي على أيدي مبشرين من اليهود، من هنا نراهم في أوربا من ذوي الشعر الأصفر والعيون الزرقاء، وفي الحبشة من ذوي البشرة السوداء والشعر المجعد، وفي الصين الصفر المغول، فالذي يقر العقل وتشهد له مبادئ علم الشعوب والأجناس هو أن إدعاء الصهاينة أنهم من أصل فلسطيني واحد كذب محض وتجن على الحقيقة.

يقول في ذلك الأستاذ أوجين بيتار أستاذ علم الأنثروبولوجيا في جامعة جنيف سابقا: "إن جميع اليهود بعيدون عن الانتماء إلى الجنس اليهودي".

ويقول في موضع آخر في كتابه:

"إن العناصر التي تتألف منها جماعة اليهود متنوعة تنوعا

عظيماً"(١).

أما الجذور التاريخية التي تربط الشعب اليهودي بأرض فلسطين في زعم الصهانية فتقول عنها الكاتبة الأمريكية ايلين بيتي بعد تحليل رائع لتاريخ فلسطين:

"على أساس هذا السجل التاريخي نرى أنه ليس للأردن ولا لإسرائيل أية ذرة من الحق القانوني في فلسطين تشبه دعوى في كونها مضحكة دعاوى موسوليني عند ما قام يطالب بامبراطورية روما الاستعمارية القديمة.

من هو إذن صاحب الحق القانوني في فلسطين؟ هناك شعب واحد لا يكاد يذكره أحد، ويكاد يكون نسيا منسيا من الجميع، ونعني به شعب فلسطين نفسه، أهالي فلسطين"(٢).

ويقول شموئيل اتينغر: الصلات بين الشعب اليهودي وأرض إسرائيل تكون واحدة من أغرب الظواهر في تاريخه الطويل(٣).

أما الدولة اليهودية التي قامت لفترة قصيرة كما تحدثنا عنها بعض المصادر في أرض فلسطين فلم تكن إلا دولة رمزية — حتى في

---

(١) محمد عوض محمد: الاستعمار والمذاهب الاستعمارية، القاهرة، /١٤٧.

(٢) ابلين بتي: أزيلوا إسرائيل /٦٠- ٦١.

(٣) من الفكر الصهيوني المعاصر، بيروت، /٣٩.

أقوى أيامها أيضا – والسيادة الحقيقية كانت لمصر، وهذه الدولة الرمزية لم تدم إلا بضع سنوات في عمر التاريخ، لذا نجد معظم المؤرخين يعتبرون هذه الدولة حادثا طارئاً.

يقول الأستاذ هـ. ج ويلز في كتابه "موجز التاريخ": "كانت حياة العبرانيين في فلسطين شبيهة بحياة رجل يصر على الإقامة في وسط طريق مزدحم، فتدوسه الحافلات والشاحنات باستمرار" ومن البدء حتى النهاية لم تكن مملكتهم سوى حادث طارئ(١).

ويقول الأستاذ هـ. د دونت في كتابه "مركز المدينة القديمة": "إنه لم يعثر لا على كتابة قديمة واحدة في فلسطين من شأنها أن تدل على وجود مملكة عربية لليهود هناك"(٢).

وتقول الكاتبة بلافاتسي: "العملات النقدية التي ترقى في القدم إلى ما قبل آلاف السنين في فلسطين قد اكتشفت، والقبور التي خلفها الذين عاشوا في عصر موسى بفلسطين أيضا قد فتحت واكتشفت محتوياتها جميعا، فلم يعثر في جميع هذا على دليل واحد أو إشارة بسيطة تخبرنا عن وجود ما يسمى بأمة يهودية أو شعب

---

(١) قسطنطين خمار: الموجز في تاريخ القضية الفلسطينية، /١٥.

(٢) نفس المصدر، /٤٨- ٤٩.

يهودي في تلك الأيام مطلقا. فإن كل ما يتعلق بهذه الأمة المزعومة غير موجودة في فلسطين لا في المقابر، ولا على النقود، وكأن كل شيء قد تبخر بفعل السحر"([1]).

هرتزل ودولة إسرائيل:

أول من قام ببدء الحركة الصهيونية كحركة سياسية في القرن التاسع عشر هو تيودور هرتزل، حيث يعتبر يوم صدور كتابه "الدولة اليهودية" يوم ميلاد الحركة الصهيونية؟

وهذا الكتاب في الأصل رسالة وجهها إلى أدمون روتشيلد وعموم أفراد أسرته الثرية التي كانت مشاريعها التجارية منتشرة في أنحاء المعمورة ملتمسا منهم إنقاذ الشعب اليهودي من أحداث الضغط والاضطهاد. وكان هذا الكتاب هو حجر الزاوية في تحقيق الحلم الذي كان يتساور إلى ذهول هرتزل وغيره من زعماء الصهاينة.

وانتقل بعد وضع هذا الكتاب إلى مرحلة عملية، فعقد مؤتمرات الصهاينة، ويدل على جديته ما قال في افتتاح مؤتمر بال بسويسرا الذي انعقد عام ١٨٩٧م:

---

(١) راجع فلسطين والغز والتترى الجديد /٥- ٦.

"إننا اجتمعنا هنا لنضح حجر الأساس في بناء البيت الذي سوف يأوي إليه اليهود". وركز على ثلاث نقاط منذ أول يوم:

١-تشجيع حركة هجرة منظمة إلى فلسطين على أوسع نطاق.

٢-السعي المتواصل للحصول على اعتراف دولي بشرعية توطين اليهود في فلسطين.

٣-إقناع كافة اليهود بالفكرة الصهيونية.

يقول هرتزل نفسه: لو أردت أن ألخص مؤتمر بال في كلمة واحدة لقلت: "في بال أسست الدولة الصهيونية، وبعد خمسين سنة على وجه التأكيد سيرى هذه الدولة جميع الناس"؟!

وحاول هرتزل إغراء السلطان عبد الحميد بخمسين مليون جنيه إذا ما سمح لليهود بأن يستوطنوا في فلسطين في ظل الحكم العثماني، غير أن السلطان رفض الاقتراح في صرامة المؤمن وصراحة السياسي المحنك:

"إني لا أستطيع أن أتخلى عن شبر واحد من الأرض، وإني لا أستطيع الموافقة على تشريح أعضائنا وأنا على قيد الحياة".

وبعد ما باءت جهود هرتزل بالفشل في إغراء الدولة العثمانية توجه إلى الغرب، وأجرى الاتصالات مع القادة البريطانيين،

وحملهم على تأييد المخطط الصهيوني والدوافع التي حفزت بريطانيا إلى مساعدة الصهيونيين في تنفيذ أهدافها هي تتلخص فيما يأتي:

١-رغبة بريطانيا في استمالة العناصر الصهيونية في سائر أنحاء العالم.

٢-جعل فلسطين المتاخمة لقناة السويس وذات الأهمية الاستراتيجية البالغة منطقة نفوذها إلى مستعمراتها.

٣-إيجاد مركز استراتيجي لها في العالم العربي.

وتحقيقا لهذه الأهداف أقامت بريطانيا أولا حكومة منتدبة، وبذلت قصارى جهودها لتشريد العرب الفلسطينيين وضغطهم وترجيح كفة اليهود، إلى أن وضعت مشروع تقسيم فلسطين، وأخيرا وافقت الأمم المتحدة على مشروع التقسيم، خارقة جميع المبادئ الدولية الأساسية، وفي منتصف ليلة ١٥ أيار ١٩٤٨ غادر المندوب السامي البريطاني ميناء حيفا معلنا نهاية الانتداب البريطاني، وفور ذلك أعلن اليهود قيام دولة إسرائيل، وقد اعترفت بها الولايات المتحدة بعد إحدى عشرة دقيقة من إعلان قيامها.

هكذا عمل الاستعمار لخلق دولة ليس لها من مقومات الدولة شيء، وليست هي إلا صورة بشعة للاستعمار الصهيوني الحاقد في أرض عربية، بعد تشريد أكثر من مليون عربي من وطنهم الشرعي.

مطامع الصهيونية وأهدافها الاستعمارية:

الصهيونية كحركة دينية سياسية تهدف منذ نشأتها الاستيلاء على فلسطين، وتوطين اليهود فيها، وإعادة تشييد هيكل سليمان مكان المسجد الأقصى المبارك، وجعل دولتهم تمتد من الفرات إلى النيل، والشواهد على ذلك كثيرة، من أهمها:

١- يتلخص اقتراح الرحالة اليهودي استودي هابرستي أن تمتد الدولة اليهودية من شمال اللاذقية، ثم تتجه جنوبا بشرق مارة بحماه فقلعة الحصن فبحيرة طبرية، ثم محاذية لنهر الأردن حتى جنوبي البحر الميت، ثم متجهة غربا إلى البحر المتوسط.

٢- وجدت في خزانة روتشيلد خارطة كتب عليها مملكة إسرائيل، تضم هذه الخريطة فلسطين، والأردن، وسوريا، ولبنان، ووسط العراق وجنوبه، وصحراء سيناء، ودلتا النيل، والمدينة المنورة، والأراضي الواقعة في شمالها لبني قريظة وبني النضير وخيبر.

٣- جاء في كتاب للحاخام ايزاكس نشره عـــام ١٩١٧م، ثم قدمه في مؤتمر الصلح المنعقد في فرساي عام ١٩١٩م.

لقد حان للعالم أن يعرف ما هي الحـــدود الحقيقيـــة لدولـــة إسرائيل، زاعما أن هذه الحدود يجب أن تمتد من عينتاب شمالا إلى جنوبي البحر الميت، مشتملة على قسم كبير من تركيـــا ومعظـــم سوريا، وجميع الأراضي اللبنانية والفلسطينية.

٤- قدمت المنظمة الصهيونية العالمية مذكرة إلى مؤتمر الصـــلح في فرساي بتاريخ ٣ شباط عام ١٩١٩م، تطالـــب فيهـــا باحتلال جميع الأراضي الفلسطينية، مضافا إليهـــا لبنـــان الجنوبي والقسم الجنوبي الغربي من سوريا وأراضي الضـــفة الشرقية من الأردن حتى بادية الشام، كما طالبـــت هـــذه المذكرة بجزء من الأراضي المصرية.

٥- جاء في كتاب الدكتور هوزين الذي طبع عام ١٩٣٩:

"يجب أن يهاجر يهود أوربا الشرقية البالغ عددهم بضـــعة ملايين إلى فلسطين، ويحتلوا ضفتي الأردن، ويؤسسوا دولـــة يهودية صرفة، ثم تتوزع الهجرة بين البلدان العربية المجاورة".

٦- ورد في كتاب "فلسطين اليهودية" للنائب العام في فلسطين زمن الانتداب: "إن البلاد التي وعد اليهود بها في التـــوراة

من البحر المتوسط حتى الفرات، ومن لبنان حتى النيل، هي البلاد التي منحت للشعب المختار".

٧- إن الخارطة التي شاهدتها إحدى المبشرات في عام ١٩٤٣م للإمبراطورية اليهودية المقبلة كانت تشمل على فلسطين بكاملها، والأردن، وسوريا، ولبنان، وقبرص أيضاً.

٨- ألقى ابن غوريون خطابا في القدس المحتلة في ١٩ أيار عام ١٩٤٤م قائلا: إن خريطة فلسطين الحالية إنما هي خريطة الانتداب، وللشعب اليهودي خريطة أخرى يجب على الشباب اليهود أن يحققوها، وهي خريطة التوراة التي جاء فيها: "وهبتك يا إسرائيل ما بين دجلة والنيل".

٩- الصهانية يستخدمون اليوم اصطلاح دولة إسرائيل مكان أرض إسرائيل، وهو يحمل في طياته نية التوسع.

١٠- كل الدلائل تشير إلى أن الصهيونية تهدف سائر الأقطار العربية، وأن مهمة الصهيونية لم تنته بخلق دولة إسرائيل أو اغتصاب أراضي فلسطين، بل إنهم يتشبثون منذ عام ١٩١٧م بتملك حوارن في جنوب سوريا، واقترحت مذكرة المنظمة الصهيونية إلى المؤتمر الأعلى لمجلس الصلح عام ١٩١٩م، وجوب ضم جبل حرمون وجنوبي لبنان

إلى فلسطين.

وعند ما استثنى كتاب تشرشل الأبيض في عام ١٩٢٣م شرق الأردن من فلسطين اعتبر الصهيونيون ذلك خسارة فادحة بالنسبة إلى قضيتهم يعلق وايزمان على ذلك في سيرته: لقد اعتبر كتاب تشرشل الأبيض عاملا خطيرا في تقليل تصريح بلفور، حيث فصل شرق الأردن عن منطقة النشاط الصهيوني.

في ضوء هذه الحقائق يمكننا أن ندرك أبعاد الخطر الصهيوني واستمرار الفكرة التوسعية، وإذا نظرنا إلى المستقبل على ضوء تفهم الماضي لتوصلنا إلى ما ترمي الصهيونية العالمية متسترة ببعض المبادئ التقليدية ومتآمرة مع الدول الاستعمارية الأمريكية والأوروبية.

الصهيونية وفكرة إسرائيل الكبرى:

منذ أن قامت دولة إسرائيل في قلب الوطن العربي قبل ثلاثين عاما لم تزل فكرة إسرائيل الكبرى تصاحب الزعماء الصهيونيين، وقد حققت الدولة الصهيونية بعض النجاح في معارك ١٩٦٥ و١٩٦٧ في توسيع حدودها، واحتلال الأماكن التي ظلت تحت الحكم الإسلامي العربي طوال القرون، فارتسخت الفكرة في صلب

مبادئ الصهيونية، وازدادت مطامع الكيان الصهيوني، فلا نواجه اليوم حدوث دولة يهودية في رقعة صغيرة من وطننا، بل نواجه التحدي الكبير الذي يهدد كيان الدول العربية من فكرة إسرائيل الكبرى التي تهدف ابتلاع مواقعنا الاستراتيجية وأجزاء وطننا الحقيقية بأجمعها، وذلك باسم التحرير والاستقلال. وهذه الظاهرة تتطلب منا أن نقوم بالتصدي الكبير الذي يقف بوجه تحدي الصهيونية الخطر، إذ لابد أن تتساورنا المخاوف من خطة إسرائيل الثانية التي ترمي إلى تحقيق المكاسب الإقليمية والأطماع التوسعية عن طريق العمل على تحقيق وترسيخ دعائم صبغة جديدة للتقسيم بعد ما ينيف على نصف قرن من صدور قرار التقسيم الأول عن الجمعية العامة للأمم المتحدة ١٩٤٧.

ولا يمكننا أن ننخدع بالاعتقاد بأن إسرائيل تنوي التخلي عن أطماعها التوسعية التي تتذرع بها من وراء ستار المطالبة بحدود آمنة ودائمة، بل إن الواقع يؤكد لنا صدق النوايا الصهيونية لتحقيق مشروع إسرائيل الكبرى بشتى الوسائل، ومهما تعددت الصيغ والحلول.

ومنذ أن ظهرت حركة إسرائيل الكبرى إلى المسرح العلني كانت فاتحة حركة جديدة، قيل: إنها رفعت شعار كل شيء، بمعنى

المطالبة بكل شيء لنا.

وسرعان ما تحركت حركة إسرائيل الكبرى هـــذه إلى قـــوة هائلة ومنظمة على المسرح السياسي الإسرائيلي، فبعث المزيد مـــن الثقة والحماسة في نفوس الطامعين بضم الأراضي المحتلة، والتقـــت مع مزايدات الزعماء التوسعية على صعيد واحد، ثم كان فتـــوى الحاخام الأكبر بتكفير كل من يتخلى عن شـــبر واحـــد أو ذرة واحدة من الأرض الموعودة، وتصريح وزير الشـــئون الدينيـــة في إسرائيل آنذاك زراخ فارها بنتغ بقوله: "قد عدنا إلى أرضنا، ومن الآن إلى الأبد".

ومنذ ذلك الوقت أصبحت إسرائيل جوقة توسعية مرتفعـــة الأصوات، وانصرف رجال السياسة وزعماء الأحزاب إلى كسب تأييد الناخبين، محتجين بإصحاحات التوراة وآياتها لكي يبرهنـــوا على مزاعم إسرائيل وادعاءاتها التاريخية في شـــبه جزيـــرة ســـيناء وقطاع غزة ومرتفعات الجـــولان الســـورية والضـــفة الغربيـــة للأردن([1]).

فإن فكرة إسرائيل الكبرى التي تؤمن بها الصـــهيونية، والـــتي تسعى دولة إسرائيل المزعومة لتحقيقها، تبتنى على خطة ابـــتلاع

---

(١) أسعد رزوق: إسرائيل الكبرى /٦٤٤.

كافة الأراضي العربية.

وتمشيا مع هذا المبدأ التوسعي، وتنفيذا لهذا المخطط الصهيوني دائماً يفكر زعماء الصهاينة في توسيع حدود إسرائيل، فتخرق القوات الصهيونية خطوط الهدنة متسترة بمصطلح "الحدود الآمنة" بتشجيع من جماعة الحاخامات والزعماء السياسيين.

وإن كتاب آر، كي، كرنجيا "خنجر إسرائيل" وحده يكفى لتقدير جشع الصهيونيين وجوع بقرهم الأرضي، حيث إنهم لا يزالون يحاولون خرق الحدود للدول المجاورة رافضين كل القيم والمبادئ الأخلاقية والقوانين الدولية، ومستهينين بقرارات الأمم المتحدة التي أصبحت لعبة في أبدي الدول العملاقة.

والحدود السياسية للدولة لها قيمة لا تنكر، وما أصدق تعبير اللورد كبروزون في كتابه "الحدود": "الحدود كنصل موسى، يتوقف عليها نشوب الحرب أو استقرار السلم، وحياة الشعوب أو فناؤها".

فعند كل اقتراحات الحلول والتسويات ينبغي لنا أن ندرك خطورة الحدود، وما لها من أهمية في حياة الأمم.

كانت إسرائيل تملك ٢٠٧٠٠ كيلومتر مربع،واحتلت في عدوان عام ١٩٦٧م أربعة أضعاف مساحة إسرائيل، فأصبحت

مساحتها نحو ٨٧ ألف كيلومتر مربع([1]).

غير أن كل الدلائل تشير إلى أن أطماع زعماء الصهاينة والخامات الإسرائيليين لم تكتمل بعد، نظراً إلى ذلك ينبغي لنا أن نكون على حذر دائما من عدونا.

نكبة فلسطين والشعب العربي الطريد:

إن النكبة التي حلت بالعرب الفلسطينيين إثر قيام دولة إسرائيل ألجأت أكثر من مليون عربي إلى أن يتركوا وطنهم الشرعي، ويعيشوا حياة الجلاء، و لم يحدث ذلك اعتباطا، و لم يكن ليحدث باختيارهم، إذ لا يتصور أن تترك أغلبية المواطنين في قطر معين بلادهم لأقلية دخيلة، غير أن هذا الحادث الغريب قد وقع في فلسطين بمرأى من العالم ومسمع، تحت مؤامرة القوى العملاقة نفسها، وأصبح الشعب الفلسطيني مشردا مضطهدا يعيش في جو وحشي إجرامي، ولا يزال يعاني أنواعا من الويلات على أيدي الغاصبين الغاشمين.

وكل من يستعرض تاريخ دولة إسرائيل المزعومة يصدق الدكتور الصهيوني أوسكار ليفى في قوله: "نحن (اليهود) لسنا شيئا

---

(١) راجع صحيفة الدستور الأردنية ١٤ آذار عام ١٩٦٨م.

إلا مفسدي العالم ومدمريه، ومحركي الفتن فيه، وجلاديه"([1]).

إن الجرائم اللاإنسانية التي يرتكبها الصهاينة، والأعمال الوحشية والأساليب غير الشريفة التي تتخذها وتمارسها القوات الإسرائيلية مع الشعب الفلسطيني يندى لها جبين الإنسانية حياء، وأحداث التنكيل بالعرب تهز ضمير كل إنسان هذه هي الحقيقة التي دفعت المؤرخ العالمي الشهير آرنولد توينبي البريطاني إلى أن يقول بصراحة وصرامة: "إن جرائم النازية ضد اليهود أقل انحطاطا إلى الدرك الأسفل من جرائم اليهود ضد الأبرياء العرب"([2]).

ولا تحتاج هذه الحقيقة إلى التدليل أو البحث والاستفاضة في البحث فما كتبه الباحثون الأجانب، وما أعدوه من مراجع ووثائق، فيها غنى وكفاية، غير أن الشيء الذي يهم المسلمين جميعا هو الإهمال الذي تشهده هذه القضية، وهزلنا بإزاء جدية الأعداء في التخطيط والممارسات وفي كل شيء.

وقد أصبح من المعروف لدى الجميع أن فلسطين والقدس، والأقصى والأراضي كلها ضاعت بين أطماع الدول الاستعمارية ومواقف بعض الدول العربية، وقام خنجر إسرائيل في قلب الأمة

---

(١) بروتوكولات حكماء صهيونيون /٤٥.

(٢) راجع كتابه فلسطين جريمة ودفاع طبع دار العلم للملايين، بيروت.

الإسلامية.

ورغم أننا نملك قوة استراتيجية هائلة، نملك الذهب الأسود الذي يدور حوله رحى الاقتصاد العالمي، والذي يدوّر عجلات الإنتاج في العالم، ونحتل المواقع الاستراتيجية من العالم، غير أننا مع كل ذلك قد أصبحنا لعبة في أيدي العابثين، فبدل أن نهاجم العدو المشترك لا نزال نخوض في المعارك الدامية ضد إخواننا، فالحروب الأهلية قائمة، والخلافات موجودة، ونار الاشتباكات الداخلية مستعرة، مع أن العدو الغاشم يجثم فوق صدورنا، ويسلب منا أرضا تلو أرض، ونحن نتخلى عن منطقة بعد منطقة. والله وحده يعلم ماذا سيكون مصير الأحداث؟ وهو السميع البصير،،،

* * *

المنهج السلفي وصلته بالخطاب الديني المعاصر

الحمد لله والصلاة والسلام على محمد ومن والاه وبعد:

فإن مصطلح "الخطاب الديني" قد ظهر في بيئة غير إسلامية على لسان أحد الفلاسفة الفرنسيين، وازداد الضغط على المسلمين بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر لتغيير المناهج الدراسية وتطوير الخطاب الديني، وكما يقال لا مشاحّة في الاصطلاح، فإن للمسلمين فهمهم الخاص للخطاب الديني المعاصر فالعقائد والأحكام الشرعية الثابتة لا أحد يملك استبدالها أو تغييرها لأنها تشريع إلهي وتنزيل من حكيم حميد فهي ليست في حاجة إلى تطويرها، وإن تطوير الخطاب الديني المعاصر مفهومه الصحيح عند المسلمين، تطوير طريقة عرض الإسلام عقيدة وشريعة أمام العالم، وأن أسلوب العرض يتجدد ويتحدد بالمخاطبين فلا مانع من تطوير لغة الخطاب وجعلها أكثر تشويقا وأكثر تأثيرا وإشراقا.

وجزى الله خيرا القائمين على هذه الندوة المباركة وعلى رأسهم معالي الأستاذ الدكتور سليمان أبا الخيل مدير جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية على اختيار (السلفية منهج شرعي

ومطلب وطني) عنوانا لهذه الندوة والخطاب الديني المعاصر محـــورا من محاوره.

أسأل الله العلي القدير أن تتكلل هذه الندوة بالنجاح وتحقق أهدافها في تجلية الحقائق ووضع ضوابط المنهج أمام العالم في وقت تشهد فيه المملكة نهضة شاملة وتطورا وانفتاحا تحت قيادة خـــادم الحرمين الشريفين حفظه الله، ويشهد العـــالم تطـــورات خطـــيرة وسريعة في كافة المجالات وعلى كافـــة المســـتويات وإن ثـــورة المعلومات ووفرة وسائل الاتصالات جعل العالم كله كقرية صغيرة في تبادل المعلومات وتناقل الأفكار والأيديولوجيات.

لقد وقف الإمام المجدد الشيخ محمد بن عبد الوهاب النجدي لمحاربة البدع ومكافحة أنـــواع الشـــرك المستشـــري في بعـــض المجتمعات، وإن تلاميذه وأتباعه اهتموا أكثر ما اهتموا بتوضـــيح العقيدة وترسيخ مفهوم توحيد الألوهية والربوبية وتوحيد الأسمـــاء والصفات لأنهم لاحظوا الخلل في هذا الجانب وشعروا بأن النـــاس في حاجة إليه.

كما أنه ركّز على العودة إلى الكتاب والسنة مع عدم قطـــع الانتماء إلى مذهب الإمام أحمد بن حنبـــل في معظـــم الأحكـــام الفقهية، وكان هذا الجزء من الدعوة يهدف القضاء على العصبية

لدى بعض أتباع المذاهب الفقهية من المتأخرين لا بهدف القضاء على ما تركه الأئمة من ثروة فقهية هائلة و إيجاد مذهب فقهي جديد.

ولكن لا يعني ذلك أن "المنهج السلفي" يقتصر على هذين الجانبين فقط ولا اهتمام له بالواقع المعاصر أو القضايا الأخرى في السياسة والاجتماع والاقتصاد بل إن "المنهج السلفي" له اهتمام بكل هذه الجوانب، وإن التعاون القائم بين الشيخ محمد بن عبد الوهاب النجدي والأسرة الكريمة الحاكمة في المملكة العربية السعودية منذ نشأة المملكة قد حدد مسار "المنهج السلفي" حيث أن الدعوة لم تبق معزولة عن القضايا العالمية الكبرى وكان من طبيعة الحال أن يتوسع الفكر وأن لا يبقي عمل الدعوة محصورا على مجتمع نشأت فيه الدعوة وإن الأسرة الحاكمة قد التزمت بأنها تحكم بما أنزل الله، وأن الشريعة الإسلامية هي تكون دستورها الدائم، ومن المعلوم أن الحكومات لا يمكن أن تعيش بعيدة عما يجري في العالم من تطورات وأحداث وما يوجد فيه من أفكار وأيديولوجيات وما يواجهه الناس من تحديات وأزمات فكانت القضايا العالمية موضع اهتمام المسئولين منذ أول يوم.

وقد شاء الله سبحانه أن تكون المرجعية لبلاد الحرمين

الشريفين وأن تقوم بين المملكة وبين كافة دول العالم علاقة التفاهم والتعايش، وقد نمت المملكة وازدهرت وشهدت تطورا اقتصاديا وعمرانيا شاملا، وأن الحضارات دائما تأتي بمسائل لم تكن معهودة من قبل.

"فالمنهج السلفي" المتبع في المملكة العربية ظل مواكبا في التطور واستيعاب كافة قضايا العصر كما أن هذا المنهج قابل لأن يستوعب ما سيحصل مستقبلا لأن كليات المنهج مستمدة من الكتاب والسنة ولهما البقاء إلى يوم القيامة وإن ربط القضايا المستجدة بالنصوص واستنباط أحكامها منها هي مسئولية فقهاء كل عصر، "فالمنهج السلفي" يبقى مواكبا للتطورات الفكرية والحضارية في كافة العصور في ظل الشريعة الإسلامية والفهم السليم لنصوص الكتاب والسنة.

كما أن المملكة لما كانت بمنزلة راعية للمسلمين جميعا باعتبارها بلاد الحرمين الشريفين فهي تقف على مسافة واحدة مع كافة المسلمين عربهم وعجمهم على اختلاف وجهات نظرهم وانتماءاتهم المذهبية، ولا شأن لها بأنهم شوافع أو أحناف أو مالكية أو حنابلة، وهم ينتمون إلى حزب ديني أو سياسي معين أو بآخر، كما لا شأن لها بترك إحدى المجموعات تقليد الأئمة الأربعة

وأخراها بالانتماء إليهم وإتباعهم في المسائل الفقهيـــة والقضـــايا الجزئية في العبادات أو المعاملات وإنما دورها هي النصح من أجل توحيد الصف حتى لا يذهب ريحهم ولا يستهدفهم أعداء الإسلام وأن لا تقضي عليهم التيارات الفكرية العاصفة.

هذه كانت وجهة نظر مؤسس المملكة و ظلت هذه السياسة لمن ورثه من أبنائه الملوك في التعامل مع المسلمين عموما على حد سواء من غير ترجيح كفة مجموعة على الأخرى أو الانحياز إلى فئة دون غيرها، ومازال هذا النهج قائما يتجلّـــى في جهـــود خـــادم الحرمين الشريفين من الوساطة بين الفئات والأحـــزاب المتحاربـــة والدول المسلمة المتخالفة، فكم مرة دعي الفرقاء المتخاصـــمين إلى مائدته لتوحيد الصف وتقريب وجهات النظر سواء كان الأمـــر يتعلق بفلسطين وأفغانستان أو بسوريا ولبنان.

إن الخطاب الديني المعاصر وفق المنهج السلفي جـــزء مـــن المشروع الحضاري للمملكة العربية السعودية تحت قيـــادة خـــادم الحرمين الشريفين الوريث الحقيقي لكياسة وسياسة موحد الجزيرة الملك عبد العزيز آل سعود.

ويتكوّن هذا الخطاب من العناصر التالية:

- الالتزام الكامل بالكتاب السنة وتطبيق تعاليم الدين الحنيف

عقيدة وشريعة.

- التأكيد على توحيد صف المسلمين وإيجاد روح الإخـــاء والتعاون بينهم على اختلافهم في الانتماء المذهبي واختيار المنهج الفقهي.
- نشر العلم وتوفير كافة وسائل المعرفة وجعل المملكة ساحة للتطور التقني وواحة للأنشطة العلمية والتقنيـــة المتنوعـــة وجعل التعليم في متناول كافة أبناء المملكة.
- الانفتاح على العالم كله وفتح باب الحوار مع كافة أهـــل الديانات والملل لإيجاد مناخ التعايش السلمي بين كافـــة الأمم والشعوب ونزع فتيل الاشتباكات والحروب.
- الحرص على التنمية الشاملة للمجتمع في ضـــوء الخطـــة الإستراتيجية وتوفير فرص العمل لكافة فئات المجتمع مـــن خلال منهجية مدروسة في تنمية الموارد البشرية وتنفيـــذ برامج التطوير والتدريب.

إن تاريخ الملل والديانات ملئ بمثيري الشغب الذين كـــانوا يكفّرون ويضلّلون ويكيلون التهم إلى الناس جزافا فهناك شخصان في تاريخ الإسلام اشتهرا بتكفير الناس بالجملة، أحدهما عيسى بن صبيح المردار من المعتزلة الذي انتهى أثره وبادت فرقته ولم يبق له

ذكر إلا في كتب الملل والنحل يقول الشهرستاني أنه كان يقول:

"من لابس السلطان فهو كافر، ومن قال إن أعمال العباد مخلوقة لله فهو كافر، ومن قال: إنه يرى بالأبصار فهو كافر وغلا في التكفير حتى قال: هم كافرون في قولهم: لا إله إلا الله".

وقد سأله إبراهيم السندي مرة عن أهل الأرض جميعا فكفرهم فاقبل عليه إبراهيم وقال:

"الجنّة التي عرضها السموات والأرض لا يدخلها إلا أنت وثلاثة وافقوك؟ فخزى و لم يحر جوابا"(١)

وثانيهما هو الشيخ أحمد رضا خان زعيم الطائفة البريلوية في شبه القارة الهندية الذي تنتمي إليه الطائفة البريلوية وتصفه بمجدد العصر وتنسب إليه كرامات وخوارق، يقول الشيخ عبد الحي الحسني والد الشيخ أبي الحسن الندوي عن أحمد رضا خان البريلوي في كتابه "الإعلام بمن كان في تاريخ الهند من الأعلام":

"كان متشددا في المسائل الفقهية والكلامية، متوسعا ومتسارعا في التكفير، وقد حمل لواء التكفير والتفريق زعيم هذه الطائفة تنتصر له وتنتسب إليه وتحتج بأقواله، وكان لا يتسامح ولا يسمح بتأويل في كفر من لا يوافقه على عقيدته وتحقيقه، أو من

---

(١) الملل والنحل للشهرستاني ٦٩/١.

يرى فيه انحرافا عن مسلكه ومسلك آبائه شديد المعارضه، دائم التعصب لكل حركة إصلاحية".(١) ألّف نحو مائة رسالة في تكفير مؤسسي "ندوة العلماء" وجمعها في كتاب سمّاه "حسام الحرمين برجف ندوة المين" ثم التفت إلى تكفير العلماء الأعلام من روّاد النهضة الإسلامية الحديثة وأئمة الفقه والحديث وزعماء الحركة الإصلاحية في شبه القارة الهندية وألف كتابا آخر ونسب إليهم زورا وبهتانا أقوالا وعقائدهم بعيدون عنها، وخدع علماء الحرمين وأخذ التوقيع على فتوى التكفير من الشيخ زيني دحلان وغيره من علماء الحرمين في تلك الفترة، و لم يزل مجموعة من أتباعه لا يصلون وراء أئمة الحرم حينما يأتون للحج أو العمرة ويزورون مكة والمدينة زادهما الله شرفا كما كانوا يغسلون مساجدهم إذا دخلها أحد من العلماء الصادقين بحجة أنهم وهابيون كفرة — والعياذ بالله —.

ومع الأسف الشديد مازالت في الأمة مجموعات شاذة من هذا النوع توجه سهام التكفير والتضليل عشوائيا من غير أن تتأكد من صحة ما تنسبه جماعة إلى غيرها لأسباب ودوافع مادية بحتة فتورط بعض المشهورين من العلماء من غير أن يعرفوا حقيقة الأمر

---

(١) الإعلام بمن في تاريخ الهند من الأعلام ٨/٥٠- ٥١.

وذلك بنقل غير أمين وترجمة غير دقيقة لمن تريد تشويه سمعته من أفراد أو جماعات والله المستعان.

ولقد أحسنت جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية صنعا بجمع كافة ما كتبه الشيخ محمد بن عبد الوهاب من مؤلفات، وتحقيق نسبتها إليه وتوثيقها ثم نشرها في طبعة خاصة باسم الجامعة وذلك بهدف تجلية حقيقة دعوة الشيخ وتيسير الاطلاع عليها ومراجعتها لإتاحة الفرصة للدارسين المنصفين' والباحثين عن الحقيقة في ذاتها أن يصلوا إليها بأوثق طريق، بعيدا عن كل تزييف أو تشويه أو إدعاء باطل يحاول صاحبه أن يلبسه ثوب الحق فأصبحت تلك المجموعة في متناول الجميع في طبعة فاخرة وحلة قشيبة بفضل من الله وتوفيقه.

القسم الخامس من هذه المجموعة تشمل على الرسائل الشخصية للشيخ المصلح محمد بن عبد الوهاب النجدي، وهذه الرسائل تكفي لمعرفة مدى تأثير الدعايات المكثفة التي كانت ضد الشيخ ودعوته، وتقدير أنه كم كانت صورته مشوّهة داخل ربوع الجزيرة العربية فضلا عن البلاد الأخرى كالهند وغيرها، وقد حاول الشيخ من خلال تلك الرسائل إيضاح واقع الأمر وبيان صحة وسلامة موقفة في كثير من القضايا الحساسة والدفاع بنفسه عن

التهم التي كانت توجه إليه من أوساط مختلفة بسبب قلة اطـــلاع الناس على طبيعة مهمته الإصلاحية.

هذه الرسائل – على عكس ما يحاول بعض الناس من إعطاء صورة الشيخ بأنه كان على حرب دائمة وعـــداوة مـــع أتبـــاع المذاهب الأربعة – تعطي للشيخ صورة عالم يقـــدر مـــا للأئمـــة الأربعة من مكانة وما لهم من دور في الاجتهاد والاستنباط فيقول في الرسالة الموجهة إلى السويدي عالم من العراق:

"وأخبرك إني – ولله الحمد – متبع ولست بمبتدع، عقيدتي وديني الذي أدين الله به مذهب أهل السنة والجماعة الذي عليـــه أئمة المسلمين مثل الأئمة الأربعة وأتباعهم إلى يوم القيامة".(١)

ويقول في الرسالة الخامسة الموجهة إلى العلماء الأعلام في بلد الله الحرام:

"فنحن ولله الحمد متبعين غير مبتدعين على مذهب الإمـــام أحمد بن حنبل وحتى من البهتان الذي أشاع الأعـــداء أني أدعـــى الاجتهاد ولا أتبع الأئمة ويقول موضحا خلاصة دعوته:

وأنا أشهد الله وملائكته وأشهدكم على دين الله ورسوله أني متبع لأهل العلم، وما غاب عني من الحق وأخطأت فيه فبينـــوا لي

---

(١) الرسائل الشخصية /٣٦.

وأنا أشهد الله أني أقبل على الرأس والعين، والرجوع إلى الحق خير من التمادي في الباطل([1]) ويقول في الرسالة السابعة الموجهة إلى عبد الله بن سحيم:

المسائل التي شنع بها، منها ما هو من البهتان الظاهر وهي قوله: إني مبطل كتب المذاهب وقوله: إني أقول: إن الناس من ستمائة سنة ليسوا على شيء وقوله: إني أدعى الاجتهاد وقوله: عن التقليد، وقوله: إني أقول: إن اختلاف العلماء نقمة، وقوله: إني أكفّر من توسل بالصالحين، وقوله: إني أكفر البوصيري لقوله: يا أكرم الخلق.... وقوله: إني أقول: لو أقدر على هدم حجرة الرسول صلى الله عليه وسلم لهدمته، ولو أقدر على الكعبة لأخذت ميزابها وجعلت لها ميزابا من خشب، وقوله: إني أنكر زيارة قبر النبي صلى الله عليه وسلم، وقوله: إني أنكر زيارة قبر الوالدين وغيرهم، وإني أكفر من يحلف بغير الله لهذه اثنتا عشرة مسألة"، جوابي فيها أن أقول: سبحانك هذا بهتان عظيم([2]).

لم يترك هذا الكلام الواضح المبين مجالا لأي مجادل أن يتهم الشيخ بشق عصا الوحدة أو ينسب إليه أنه كان على تطرف أو

---

(٢) الرسائل الشخصية / ٤١- ٤٢.

(١) الرسائل الشخصية / ٦٤.

غلوّ في تضليل المسلمين وتكفيرهم أو تفسيقهم ويثبت بوضـــوح وجلاء أن "المنهج السلفي" الذي اختاره لم يحد فيه عما كان عليه السلف الأقدمون ومن تبعهم بإحسان.

إن روح الخطاب الديني "للمنهج السلفي" لا تختلف باختلاف العصور والأزمان ولا اختلاف الأمكنة والأمصار لأن أسس الدين من الحقائق الثابتة وجوهر نصوص الشريعة من الأمور الدائمة التي لا تقبل أي تعديل أو تغيير إنما يكون التغيير في الصياغة والتعبير.

وإن "المنهج السلفي" ليس كل ما تدعيه فرق وجماعات هنا وهناك في مختلف أنحاء العالم بأنها سلفية علمية أو تراثية أو جهادية لأهداف وغايات مختلفة' بل إن "المنهج السلفي" هو القائم علـــى الفهم الصحيح للتنزيل والتطبيق العقـــلاني للأحكـــام الشـــرعية والالتزام الكامل بالسنة الصحيحة الثابتة.

نعم هناك حاجة لتحديد مفهوم "السلفية" وتحديد المراد من "السلف" حتى لا يبقى المصطلح فضفاضا يحتمي إليه كلّ من هبّ ودبّ ويدخل فيه كل من يزعم أنه سلفي مع كون البون شاســـعا بينه وبين المنهج السلفي الحقيقي وبتحديد مفهوم "السلفية" وبيان ما هو المراد من "السلف" تتحدد المعالم وتتعين الحدود والضـــوابط فلا تبقى ثغرة يدخل بها من يزعم أنه من "السلفية الجهاديـــة" أو

السلفية الجارحة التي تفرّق وتخاصم وتجعل بينها وبين جماهير الأمة وعلمائها حواجز مصطنعة، ولا التي تكفر جزافا وتضلل وتبدع كل من خالفها أو انتقد جمودها على ظواهر بعض النصوص.

يقول الإمام الخطابي رحمه الله عن "السلف":

"وكان أرفعهم في العلم درجة وأعلاهم قدرا ورتبة أئمة القرون الثلاثة الذين نالتهم الخيرية ولحقتهم الدعوة في قوله صلى الله عليه وسلم: "خير الناس قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم ومع الصدر الأول والنمط الأفضل ورثة علم السنة والحافظون لها على من بعدهم من الأمة ثم لم يزل أوّل منهم يلحقه إلى آخرة يتلقاه خالف عن السنة سالف ليكون دين الله بعلم محروسا عن تحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين.([1])

إن "السلفية الحقيقية" التي تدعو إلى العودة إلى الكتاب والسنة، والابتعاد عن البدع والأضاليل نابعة عن الغيرة على عقيدة التوحيد التي هي أصل الدين وأساسه، وينبغي أن يكون منهج كل مسلم عاقل إنما الإشكالية في كثرة المندسّين إلى "السلفية" من أهل الأهواء الذين جعلوا "السلفية" شعارا لهم لتنفيذ مخططاتهم وانضموا تحت ستارها لتحقيق أطماعهم وربما كانت الأغراض المادية

(١) غريب الحديث ٤٦/١.

والدوافع المالية هي وراء إعلان بعض الجماعات أنها ذات ميـــول سلفية ولا يستبعد أن تكون جهات مشبوهة سرية تريـــد تشـــويه سمعة "السلفية" الحقيقية لتفقد أثرها وتصبح نكرة في المجتمع بـــين عامة الناس.

فهناك مجموعات قتالية تدعى أنها حركة "السلفية الجهادية" ولا يدري من أين تتلقى تلك الحركة دعما ماديا ومعنويا لإحداث مشاكل وقلاقل في عدد من دول العالم وتحصد أرواح الأبرياء من غير ذنب اقترفوه.

فمن يقتل نفسا بغير نفس و يُفسد في الأرض ويســـتهدف الأبرياء من الرجال والنساء والأطفال بالتفجير والتدمير لا يمكن أن يكون "سلفيا حقيقيا"

كما أن هناك مجموعات ليس لها علاقة مباشرة مع حركـــة الشيخ محمد بن عبد الوهاب النجدي جعلت "السلفية" شعارا لها للطعن في المذاهب الفقهية المعتمدة والإساءة إلى الأئمـــة الأعـــلام الذين حث شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله على رفع الملام عنهم وتقدير ما تركوه من ثروة فقهية هائلة مع أن شيخ الإسلام ابـــن تيمية هو رائد السلفية الحقيقة ويجب أن يكون هو القدوة في هذا الموضوع.

إن السلف الصالح لم يتخذوا الطعن والتجريح منـــهجا ولا التكفير والتضليل ديدنا لهم بل كان الإنصاف والاعتـــدال هـــو منهجهم في تناول الأمور وتقدير الأشياء و تقييم الرجال.

هناك انتقادات كثيرة وجهت إلى التيار السلفي أورد هنا ما كتبه عالمان معاصران في نقد "السلفية" وهما الشيخ محمد الغـــزالي والشيخ الدكتور يوسف القرضاوي.

يقول الشيخ محمد الغزالي:

"الانتساب إلى السلف شرف غالي الثمن، لأنه انتســـاب إلى خير القرون في تاريخنا، ورفض للشهوات والخرافات التي حفـــت بديننا في عصور الضعف والهزيمة بيد أن التفكير السلفي المعاصـــر أعجز من أن يحقق أهدافه المنشودة.

لقد اتسع نطاق البحـــث في علـــوم الـــنفس والاجتمـــاع والاقتصاد والقانون والأخلاق والسياسة،وفي هـــذه الدراســـات الإنسانية جوانب كشافة لأغوار النفس وطبائع الجماعات البشرية لا معنى لتجاهلها وفيها جوانب تتفق مع وجهات النظر الإسلامية ليست مما يرتضيه السلفيون اليوم، وهذه لا معـــنى للضـــراوة في محاربتها وفيها جوانب محايدة لا ضد الدين ولا معه فمـــا قيمـــة مخاصمتها؟

ويقول في مكان آخر من كتابه:

نصل إلى الحركة السلفية التي قادها في القرن الماضي محمد بن عبد الوهاب، إن كل غيرة على التوحيد مشكورة، وكل جهد لتنقية العقائد من الشوائب والأقذاء مقدور، ونحن نأبي الإغضاء عن مسالك أقوام يرهبون الأموات غير الأحياء أكثر مما يرهبون الله، ويطلبون منهم ما لا يطلب إلا من الله سبحانه.

ما أعرف مسلما ذا عقل يخاصم هذه الحقائق أو يعترض أصحابها، ولو رزق محمد بن عبد الوهاب أتباعا ذوي حكمة وبصيرة لكانت الأقطار التي انفتحت له أضعاف مساحتها الآن، إن الدعاة المصابين بضيق العطن واصطياد التهم وشهوة الغلب يضرّون أكثر مما ينفعون.(١)

ومن أبرز تعاليم السلفية – بعد صون العقائد من الدخل – رفض التقليد المذهبي، والعودة بالأمة إلى الكتاب والسنة! وهذا حسن، بيد أن تطبيقه يحتاج إلى تأمل، فإن السلفيين لم يتركوا تقليد أحمد بن حنبل، وإيثار مدرسته، ومن حق غيرهم أن يفعل ذلك مع سائر الأئمة الباقين.

ثم إن الاجتهاد الفقهي ليس كلأ مباحا فقد دخل في هذا

---

(١) مستقبل الإسلام خارج أرضه ١١١.

الميدان من لا يؤمن على قراءة ورقة، وصدرت عنه فتاوى وأحكام تؤذي الإسلام وتنفّر الخاصة والعامة منه،(١)

إذا ليست الإشكالية لدى الناقد في أصل المنهج إنما الاعتراض على سوء التطبيق من قبل بعض من ينتمي إلى المنهج السلفي ثم إن واقع الجامعات السعودية وما تحتوي عليه من أقسام وكليات علمية وتقنية خير دليل على أن المنهج السلفي السليم لا يمانع الانفتاح على الحضارات والاستفادة مما لديها من علوم وحكم.

ويمكن أن يقال على وجه البصيرة بأن هيئة كبار العلماء في المملكة لم تتردد يوما في الاستفادة من كافة المصادر الفقهية على اختلاف مذاهبها، كذلك كليات الشريعة في جامعات المملكة لا تقتصر في مناهجها على تدريس مذهب واحد بل ان الفقه المقارن جزء من موادها المعتمدة كما أن رابطة العالم الإسلامي قد عقدت مؤتمرا عالميا لوضع ضوابط الإفتاء وأن خادم الحرمين الشريفين أصدر مرسوما ملكيا حول حصر الفتاوى على ذوي الكفاءات وتحت إشراف سماحة المفتي العام.

"فالمنهج السلفي" الذي كان عليه سلف الأمة من الصحابة

---

(١) مستقبل الإسلام ١١١.

رضي الله عنهم والتابعين وأتباعهم وهم خير القرون لاشك أنه "منهج شرعي" كما أنه "مطلب وطني" أيضا.

"منهج شرعي" لأنه منهج خير القرون مبني على فهم نصوص الكتاب والسنة فهما صحيحا غير مشوب بتأثيرات خارجية' وأفكار غير مستوردة من اليونان والرومان.

و"مطلب وطني" لأن عليه قامت المملكة العربية السعودية، وفيه سرّ بقاءها وازدهارها وإليه دعا رائد الفكر السلفي الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله.

لذا ينبغي أن يستمر هذا المنهج وأن يبقى سائدا مع التغيير في اللغة وأسلوب الطرح أمام العالم وفق معطيات العصر لأن كل عصر له قضاياه ومعطياته وكل جيل له بيئته وثقافته.

أما الدكتور يوسف القرضاوي فيلاحظ:

وإذا كان الشيخ محمد بن عبد الوهاب قد وقف ضد الشركيات والمبتدعات في مجال العقيدة والعبادة فإنه لم يظهر له جانب تجديدي في مجال الفقه وشئون الحياة، ولعل ذلك لأنه ظهر في بيئة بدوية، لم تدخل عليها الحضارة بتياراتها ومشكلاتها بعد فلم تكن في حاجة ظاهرة أو ماسة إلى إعمال العقل للاجتهاد والتجديد وغلب على جماعته إتباع النصوص والوقوف عندها.

بل ربما أورثت هذه النشأة الحديثة للسلفية الجديدة نزعتها للحرفية في فهم النصوص الشرعية وإهمال النظر إلى المقاصد والمعاني والعلل التي تبنى عليها الأحكام على خلاف ما كان عليه إماما المدرسة من قبل ابن تيمية وابن القيم.

ويقول: والمطلوب من الجماعات السلفية على اختلافها:

أن تتحرر من الجمود على موروثاتها والنظر إلى تفاصيلها نظرة ناقدة ومتطورة.

وذلك بأن تتحرر من الانشغال بالفروع والجزئيات على حساب الأصول والكليات' ومن النظر إلى الشكل والصورة على حساب الجوهر والروح' ومن النظر إلى المختلف فيه على حساب المتفق عليه الخ([1])

وأقول إن هذه الملاحظات كلها يدافع عنها واقع المملكة ووضعها العلمي والاجتماعي والثقافي ووجهها الحضاري المشرق حيث أن المنهج السلفي لم يكن عائقا في ازدهارها وتطورها وتخريج جامعاتها فقهاء يجمعون بين الأصالة والمعاصرة.

ويقول الشيخ القرضاوي:

وقد ظُلمت السلفية من أنصارها ومن خصومها على

---

(١) الصحوة الإسلامية من المراهقة إلى الرشد / ٢٠٣- ٢٠٤.

السواء، أما من أنصارها – أو من يعده الناس أو يعدون أنفسهم أنصارها أو كثير منهم – فقد حصروها أو كادوا في شكليات وجدليات حول مسائل علم الكلام أو مسائل في علم الفقه أو أخرى في التصوف وعاشوا نهارهم وباتوا ليلهم ينصبون المجانيق ويقذفون بالمقاليع لمن يخالفهم في أي مسألة من هذه المسائل أو جزئية من هذه الجزئيات حتى ظن بعض الناس أن منهج السلف هو منهج المراء والجدل' لا منهج البناء والعمل، وإن السلفية تعني الاهتمام بالجزئيات على حساب الكليات، وبالمختلف فيه على المتفق عليه، وبالشكل والصورة على حساب الجوهر والروح.([1])

لكن هذه الانتقادات وغيرها موجهة إلى تصرفات بعض من يدعى الانتماء إلى السلفية وليس إلى "المنهج السلفي" نفسه لأن المنهج السلفي منهج شرعي لا يختلف فيه إثنان.

وهاهي أبرز سمات "المنهج السلفي" في خطابه الديني المعاصر:

- دعوة الناس إلى دين الله الخالص والتركيز على الكليات الأساسية ورفض كافة أنواع البدع والأضاليل.
  - الإيمان بالله والواحد الأحد الذي ليس كمثله شيء وهو السميع البصير.

---

(١) أولويات العمل الإسلامي /١٠٤.

- الإيمان بالرسالة الخاتمة وكافة الرسالات التي سبقتها.
- والإيمان باليوم الآخر وما يتبع ذلك من حشر ونشر وجنة ونار.
- والالتزام بالإيمان المجمل والمفصّل المشروح في حديث جبريل عليه السلام وغيره.

- جعل الشريعة أساسا للحكم فتطبيق أحكام الشريعة أمر لازم،وجزء أساسي للمنهج السلفي.
- دعوة المسلمين إلى توحيد الصف وترك الاختلاف والتشتت والتعاون على البرّ والتقوى.
- نشر علوم الكتاب والسنة بين الناس والتأكيد على منهج سلف الأمة في فهم النصوص والتوفيق بين الأدلة المتعارضة.
- احترام أئمة الإسلام الأعلام، وعدم الإساءة إلى أحد من أئمة الفقه أو الحديث، واعتبار الاختلاف في الفهم والتوفيق بين النصوص أمرا طبيعيا لا يفسد في الود قضية.
- فتح باب الحوار مع كافة الأمم والشعوب ومع جميع أهل الديانات والملل بهدف تعريفهم بتعاليم الإسلام وإيجاد

مناخ آمن للتعايش بدل اللجوء إلى الحروب والمنازعات.

- التعامل مع غير المسلمين على أسس شرعية واضحة في التعامل مع أهل الكتاب وغيرهم من أهل الذمة في حفظ الأموال والأعراض والأرواح، شريطة التزامهم بالعهد وعدم خروجهم على النظام القائم.
- عدم إخضاع الناس للفهم الضيق للدين' وعدم إشغالهم في القضايا الخلافية الجزئية في مسائل الفقه أو العقيدة' والاكتفاء بالإيضاح لما هو الراجح والصواب.
- فتح باب الاجتهاد لأهله وإغلاقه على غير أهله في حل القضايا المستجدة وفق الأصول المعروفة والضوابط المحددة لدى أهل العلم واللجوء إلى الاجتهاد الجماعي في القضايا المستجدة والشائكة.
- ضرورة التأهيل الشرعي للراغبين في القضاء والإفتاء وضبط وحصر الفتاوى على أهل الكفاءة.

لقد كان خادم الحرمين الشريفين قائدا عظيما ورائدا حقيقيا — والرائد لا يكذب أهله — في التعبير عن "المنهج السلفي" المواكب للعصر من خلال مبادراته الموفقة.

فمشروع الحوار الوطني يساهم في تحقيق الوحدة الوطنية

ويقوي الانسجام الاجتماعي ويعطي الفرصة لكل مواطن في بناء الأمة والنهوض بالرسالة وتنمية البلد بروح الإخاء والشراكة ولو على اختلاف في الفكر أو تباعد في الفقه.

أما مبادرة خادم الحرمين الشريفين للحوار مع كافة أهل الملل والديانات فقد كان له صدى واسع على مستوى العالم لأنها مبادرة لها تأثير مباشر في تغيير سلوك الناس وإيجاد مناخ آمن للتعايش بين الشعوب والأمم.

إن إنقاذ الأمة من مسلسل الفتن والكوارث لا يمكن إلا بالقضاء على ظاهرة الاشتباكات والحروب والتعامل مع كافة الشعوب بروح التعاون على البر والتقوى ومكافحة الإثم والعدوان.

إن مبادرة خادم الحرمين الشريفين للحوار وجدت آذانا صاغية في أوروبا وفي أمريكا وفي كافة أنحاء المعمورة حتى أصبحت ثقافة الحوار بديلة عن ثقافة إنكار الآخر والهجوم والتخاصم.

لقد قام المسلمون في الماضي ببناء الحضارة الإسلامية وهي كانت حضارة إنسانية في واقع الأمر لأن الإسلام دين الإنسانية جمعاء.

فقد ظهر بين المسلمين الفلاسفة والأطباء وروّاد علوم الفلك والكيمياء والعلوم التجريبية الأخرى، ونبغ أمثال الفارابي، وابن سينا، وابن رشد، وابن الهيثم، والرازي، وابن النفيس،

والخوارزمي، وابن طفيل، وابن باجه الذين كانوا طليعة الاكتشافات العلمية الحديثة بعد الانقلاب الذي حدث في أذهان الناس منذ نزول القرآن الكريم ومجئ النبي صلى الله عليه وسلم فاتحا لأبواب العلم والمعرفة ومنقذا للإنسانية من الأوهام حول الشمس والقمر والنجوم والمجرات السماوية الأخرى، ومرشدا وموجّها إلى أن السماوات والأرض والنجوم كلها مسخرة لخدمة الإنسان وهي مجرد آيات لله سبحانه وخاضعة لأوامره لا تملك ضرّا ولا نفعاً.

إن الحضارة التي أقامها المسلمون في الأندلس وقبلها في مكة والمدنية المنورة ودمشق والقاهرة وبغداد يعرفها أهل الغرب جيدا، ولم تقم الحضارة الغربية المعاصرة إلا على أنقاض حضارة المسلمين في الأندلس، وما كانت أوروبا إلا عالة على موائد المسلمين العلمية في الجامعات العربية الإسلامية الرائدة في قرطبة وغرناطة وطليطلة وغيرها.

إن كتاب "حضارة العرب" للمستشرق الفرنسي غوستاف لوبون، وكتاب "شمس العرب تسطع على الغرب" للمستشرقة الألمانية زغريد هونكه يلقيان الضوء على ما لعلماء العرب من فضل فيما حققه الغرب من تطور في مبادين العلم وفي بناء

الحضارة، وتشييد العمران واختراع الأجهزة والآلات.

وإن خادم الحرمين الشريفين الملك عبد الله بن عبد العزيز حينما أقدم على إنشاء جامعة الملك عبد الله العالمية فلم يرد إلا استعادة مجد المسلمين الغابر وإحياء الدور الريادي للمسلمين في مجال العلم والمعرفة كما كان في زمن السلف وفي عصر ازدهار العلم والثقافة في فجر الإسلام وضحاه.

وإن هذه الخطوة ليست إلا محاولة لاستعادة مجد المسلمين الغابر في مجال البحث العلمي والاكتشافات العلمية والتقنية الحديثة ولتحقيق ما كان عليه السلف الأقدمون من الانفتاح على الثقافات الأخرى مع المحافظة على العقيدة الصحيحة ورفض المعتقدات الدخيلة التي نتجت عن ترجمة الفلسفة اليونانية إلى اللغة العربية من غير اختيار وانتقاء وسببت في انتعاش الدعوات المنحرفة مثل الجهمية والقدرية والمعتزلة وغيرها وادخلت مجموعة كبيرة من المسلمين في دوامة المراء والجدل وبأسلوب سفسطي عقيم.

إن الدعوة إلى تغيير الخطاب الديني بمعنى إحداث تغيير في تعاليم الإسلام لتكون مقبولة لدى الغرب دعوة مرفوضة لأن تعاليم الدين الحنيف سواء كانت تتعلق بالعقيدة أو العبادة أو الأخلاق والمعاملات هي منصوصة في الكتاب والسنة ولا أحد

يملك سلطة التغيير فيها أو تبديل مفاهيمها فهي غير قابل للتغيير أو التشطيب. {لا يأتيهِ الباطلُ من بينِ يديهِ ولا مِن خَلفِه تنزيلٌ مِّن حكيمٍ حميدٍ}(١)

نعم هناك مجال للتغيير والتطوير بشكل دائم ومتواصل ألا وهو مجال عرض تعاليم الدين الإسلامي الحنيف بأسلوب مؤثر وشيّق وبلغة العصر وبالأدلة المفهومة لدى المخاطبين وبكافة الوسائل المتاحة في كل عصر ومصر.

يقول الله سبحانه:

{أدعُ إلى سبيلِ ربِّكَ بالحِكمةِ والموعظةِ الحسنةِ وجَادِلْهم بالَّتي هيَ أحسنُ}(٢)

وهذه الآية ترسم الإطار العام للخطاب الديني المعاصر بأنه ينبغي أن يكون مواكبا للعصر ويتم إعداده بأسلوب حكيم وبلغة مؤثرة ويكون فيه إيضاح للشبهات التي يثيرها أهل الأهواء، وأن تكون لغة العرض جاذبة لا طاردة وجالبة لا منفّرة، قائمة على الأدلة المقنعة ومصحوبة بالرفق واللين.

يقول المصطفى صلى الله عليه وسلم:

---

(١) فصلت: ٤٢.

(٢) النحل : ١٢٥.

"إنما بعثتم ميسّرين و لم تبعثوا معسّرين" ويقول: "بشّـــرا ولا تنفّرا ويسّرا ولا تعسّرا" ويقول علي رضي الله عنه:

"حدثوا الناس بما يعرفون ودعوا لما لا يعرفون، أتريـــدون أن يكذب الله ورسوله"

فلا مجال للمساس بثوابت الدين ولا حظر على اســـتخدام الأساليب الجديدة والوسائل المستحدثة في عرض تعـــاليم الـــدين الإسلامي الحنيف أمام الإنسانية جمعاء لتفهمها وتهتدي إليها فإننا مطالبون دوما لمسايرة العصر في اتخاذ الأسباب والوسائل.

إن دعوة "عصرنة" الإسلام أو "عقلنة" الدين بهدف إسقاط بعض ما علم من الدين بالضرورة، أو التخلص من بعض التكاليف الشرعية لا يمكن أن تكون مقبولة لدى من يؤمن بالله ربّا وبالإسلام دينا وبمحمّد (صلى الله عليه وسلم) رسولا، لأنها دعوة باطلة.

لكن دعوة تطوير الخطاب الديني وفق مقتضـــيات العصـــر مقبولة بل مطلوبة إذا لم يمس جوهر الدين ونصـــوص شـــرع الله المبين وذلك بهدف الإيضاح لما قد تكتنفه الغموض لـــدى بعـــض العقول حيث أن مراعاة الظروف والأوضاع من صـــميم تعـــاليم الإسلام ومن القواعد المعروفة لدى الفقهـــاء أن الفتـــوى تـــتغير باختلاف الأمكنة والأزمنة والأشخاص والأحوال.

"فالمنهج السلفي" هو المنهج القائم على الفهم الصحيح للدين الحنيف والسلفية الحقيقية منهج شرعي ومطلب وطني نشأت عليها المملكة وترعرعت وحققت ازدهارا في كافة مجالات الحيـــاة، وان الخطاب الديني المعاصر لا يكون خارجا عن السلفية الصحيحة بل يكون نابعا عن مبادئها مستنيرا بتعاليم الكتاب والســـنة ومحققـــا لآمال الأمة.

إن مبادرات خادم الحرمين الشريفين حفظه الله منذ توليـــه مقاليد الحكم قد ربطت السلفية الأصيلة بتطورات العصر الحديث وان خطواته جمعت بين الأصالة والمعاصرة ورسمت معالم الخطاب الديني المعاصر ليكون المنطلق مبادئ السلفية الحقيقيـــة، ويكـــون الخطاب خطابا معاصرا، فهو منهج شرعي ومطلب وطني وفيـــه عرض للدين بأسلوب مؤثر وحماية للشعب وإنقاذ للأمة. والله من وراء القصد وبعزته وجلاله تتم الصالحات،،،

* * * * *

بعض المراجع:

١)	الرسائل الشخصية	الشيخ محمد بن عبد الوهاب النجدي
٢)	قواعد السلفية	د. مصطفى حلمي
٣)	الملل والنحل	عبد الكريم الشهرستاني
٤)	مستقبل الإسلام خارج أرضه	الشيخ محمد الغزالي
٥)	الصحوة الإسلامية من المراهقة إلى الرشد	د. يوسف القرضاوي
٦)	فقه الأولويات	د. يوسف القرضاوي
٧)	الاتجاه السلفي بين الأصالة والمعاصرة	راجح الكردي
٨)	السلفية مرحلة زمنية	الشيخ محمد البوطي
٩)	التراث في ضوء العقل	محمد عماره
١٠)	الإسلام بين الشرق والغرب	علي عزت بيغوفتش
١١)	مجموعة الفتاوى	الإمام ابن تيمية
١٢)	صيانة الإنسان من وساوس الشيخ زيني دحلان	الشيخ بشير السهسواني
١٣)	حسام الحرمين	أحمد رضا خان
١٤)	نزهة الخواطر	الشيخ عبد الحي الحسني

الجماعة الإسلامية في شبه القارة الهندية
نشأتها ومنهجها في التفكير والعمل

لمحة تاريخية:

مرت الدعوة الإسلامية في شبه القارة الهندية بمراحل مختلفة منذ فجر العهد الإسلامي الذي استنارت فيه أرشها بنـــور الإســـلام، وكان التجارة والبحار العرب وعلماء الدين هم طليعـــة الـــدعاة وذلك أثناء سياحتهم ومهماتهم التجارية في مناطق الهند الساحلية.

وتؤكد المصادر التاريخية وصول كتيبة إلى بعض ســـواحلها في زمن عمر بن الخطاب تلاها غزو القائد الشاب محمد بن القاســـم الثقفي قبل نهاية القرن الأول مـــن الهجـــرة وتم إنشـــاء الحكـــم للمسلمين بعد غزو السلطان محمود الغزنـــوي في القـــرن الرابـــع واستمر إلى أن قضي عليه نهائيا الاستعمار البريطـــاني في القـــرن التاسع عشر.

أما حركات الإصلاح والتجديد، ومهمات تنقية الأفكار ممـــا علق بتعاليم الإسلام في المجتمع الهندي الوثني فقد كانت مســـتمرة

يجدر بالذكر منها حركة الإمام أحمد السرهندي الملقب بمجدد الألف الثاني المتوفي ١٠٣٤ هـ حيث أنها أدت دورا كبيرا وتركت آثارا بالغة في تاريخ الدعوة والإصلاح تم بها القضاء على مؤامرة إلا مبراطور جلال الدين أكبر لهدم معالم الدين واختراع "الدين الإلهي" الجديد وإلغاء الشريعة الإسلامية.

وقد نجح الإمام السرهندي في جهاده واستطاع تحويل دفة الحكم من الإلحاد في الدين إلى الإسلام فتولي بعد فترة قليلة عرش الحكم في عاصمة الهند الملك العادل أورنك زيب عالمكير المتوفى عام ١١١٨ الذي كان مثالا للملوك الراشدين في الالتزام بالشريعة والاهتمام بشعائر الدين.

والشخصية الأخرى التي ما زالت أفكاره ماثلة في الجهود الإصلاحية المعاصرة هو الإمام ولي الله بن عبد الرحيم الدهلوي المتوفى عام ١١٧٦ الذي عاصر عشرة ملوك من الأسرة المغولية وقام بترسيخ دعائم الإسلام على أسس فكرية متينة واتخذ برنامجا شاملا للإصلاح وبذل قدر المستطاع لإنقاذ الحكم الإسلامي من الإنهيار وأوضح الفكر السياسي والاجتماعي للإسلام وأزال الغموض والخفاء لدى بعض الأوساط عن خلافة الخلفاء الراشدين.

كما أن حفيده الشيخ محمد إسماعيل الشهيد شارك في حركة

الإمام أحمد بن عرفان الشهيد ببسالة واستشهد معه عام ١٢٤٦ وكانت تهدف هذه الحركة إلى استعادة المجد الإسلامي وتطبيق الشريعة الإسلامية ومحاربة القوى الاستعمارية وعملائها من السيخ وغيرهم.

واستمرت روح هذا الجهاد فترة طويلة وجرت محاولات متكررة للقضاء على الاستعمار إلى أن فشلت ثورة المسلمين الكبرى في عام ١٨٥٨ م وانقلبت الأمور واعتقل آخر الأباطرة المغول وتم نقله إلى "رنجون" بعد قتل أبناءه الأربعة وعرض رؤوسهم في طست أمامه من قبل الإنكليز وكان هذا آخر عهد المسلمين بالحكم في الهند وبداية لحملة شرسة من أجل محاربة الإسلام والمسلمين وتذويب كيانهم، وأبعادهم عن جميع مجالات العلم والثقافة.

في هذا الجو القاتم ظهرت عدة تيارات دينية وثقافية من أهمها:

١- حركة إقامة شبكة المدارس الأهلية للحفاظ على العلوم الإسلامية وإنقاذ أبناء المسلمين من الوقوع في براثن الإرساليات التبشيرية التي كانت قوية ومدعومة من الحكومة الإنكليزية وكان قائد هذه الحركة هو الشيخ الإمام محمد قاسم النانوتوي المتوفي عام ١٢٩٧ وكانت

بداية هذه السلسلة من ديوبند حيث انشيء معهدها الإسلامي الكبير عام ١٨٦٦م وكان يمثل مجموعة العلماء المحافظين المحاربين لكافة مظاهر التغريب.

٢- انشأ الكلية الإسلامية في عليكراه (التي تحولت إلى جامعة كبيرة) لتثقيف المسلمين بالعلوم العصرية ورفع مستواهم التعليمي والمعيشي قام به الزعيم المعروف سيد أحمد خان المتوفي عام ١٨٩٨ وكان من المنادين إلى التغريب وعقد الصداقة مع الإنكليز والتركيز على التثقيف والتعليم وابتعاد المسلمين عن حرب الاستقلال ضد الإنكليز وكان خط سيره في الإصلاح شبيها بخط الشيخ محمد عبده في مصر وكان موقفه في القضايا الفكرية والدينية اعتذاريا نحو الغرب وقد وقع في تأويل بعض المعتقدات الدينية بأسلوب ترتضية العقول الأوروبية.

٣- نشاة ندوة للعلماء لاصلاح المناهج الدراسية التقليدية للمعاهد الدينية وتقريب وجهات النظر بين رجال الدين والمثقفين العصريين.

فترة الانطلاق والحركة:

كانت السنوات الأخيرة من القرن التاسع عشر وبداية القرن

العشرين فترة قلق واضطراب سياسي في كافة أنحاء العالم ومقدمة نشوب الحرب العالمية الأولى، وكان المسلمون في الهند يشاركون الأتراك بحماس شديد في إنقاذ الخلافة العثمانية ويعيشون هذه القضية كأنها هي قضيتهم الأولى حينما كانت الخلافة تلفظ أنفاسها الأخيرة ويتقلص امتدادها بسبب الهجوم الشرس على تركيا من قبل بريطانيا وفرنسا وروسيا وكان لتلك الأحداث وقع شديد في نفوس المسلمين يزيدهم حقدا على الاستعمار ويدفعهم إلى محاربته بكل والوسائل . فنشأت فيم حركات سياسية قوية وبدأت تظهر ملامح النهضة الإسلامية الحديثة.

هب العلماء وقادة المسلمين لمطاردة الإنكليز وبث روح الحرية في المسلمين وبرزت في هذه الفترة شخصيات بارزة ذات مواهب قيادية تركت آثارا ملموسة في حياة المسلمين يمكن اعتبارهم طلائع النهضة الإسلامية الحديثة ويجدر بالذكر منهم إسم كل من: محمد إقبال وأبو الكلام آزاد وإن كان دور غيرهما أيضا لا يمكن أن يستهان به.

فحينما كان الأول يعيد ثقة الشباب المسلمين بدينهم وحضارتهم ويكشف أمامهم زيف الحضارة الغربية بالشعر القوى المثير. كان الثاني يلهب بنثره البليغ المؤثر عواطف الجماهير

ويناديهم إلى الحياة الإسلامية الأصيلة والجهاد لأجل الحفاظ على الكرامة ودخول المعركة مع كافة قوى الطغيان والشر ولا شك أن أبا الكلام آزاد خلال فترة سنة ١٩١٣ إلى ١٩٢٠ وأثناء دعوته إلى جماعة "حزب الله" واصداره مجلتي "الهلال" و"البلاغ" كان أكثر الشخصيات تأثيرا في قلوب المسلمين كما أن دور محمد إقبال منذ عودته من أوروبا إلى وفاته كان رائدا في إخراج الجيل المثقف من داء مركب النقص ,وانحرف خط أبي الكلام بعد انضمامه إلى حزب المؤتمر وحماسه لقوميته.

نشأت في هذه الفترة حركة انقاذ الخلافة وكان من روادها الزعيم الديني الغيور محمد علي جوهر المتوفي عام ١٩٣٠ وبلغت حركة تحرير الهند أوجها في الهندوس تحت قيادة غاندي المقتول عام ١٩٤٨ وفي المسلمين تحت قيادة أبي الكلام، وشيخ الهند محمود حسن ومجموعة من العلماء الاعلام الذين خرجوا من مدارسهم و زواياهم لبث روح الحرية واشعال عواطف الجماهير ضد الإنكليز المستعمر غير أن حركة الخلافة انتهت بسقوط الخلافة في تركيا عام ١٩٢٤م على أيدي كمال أتاترك. وحركة الاستقلال فقدت روحها المتميزة لدى المسلمين وانقسم الزعماء المسلمون بين المؤيدين لحزب المؤتمر الوطني "ورابطة المسلمين" التي

نشأت بسبب موقف الهندوس المعادي للمسلمين وبدأت تطالب بدولة مستقلة خاصة بالمسلمين وانضم إلى قيادتها محمد علي جناح تاركا حزب المؤتمر الوطني ونسبت إليه "حركة انشاء باكستان" والي محمد إقبال "فكرتها"(١).

تحليل شخصية المودودي:

ولد السيد أبو الأعلى المودودي عام ١٩٠٣م في أسرة دينية عريقة بين أب من سلالة الإمام حسين بن علي رضي الله عنه وأم تركية الأصل وسمي باسم أحد أجداده وهو أبو الأعلى المودودي المتوفي ٩٣٥هـ الذي نزل الهند وأقام بها في القرن التاسع مهاجرا من جشت "من أعمال هراة" والي أحد أجداده تنسب الطريقة الجشتية المعروفة في بلاد الهند وغيرها(٢).

بدأ حياته تحت رعاية أبيه الذي كان محاميا من أوائل المتخرجين من جامعة من عليكره والذي كان يربيه تربية أبناء

---

(١) يراجع لتاريخ هذه الفترة:

- كفاح المسلمين في الهند للدكتور عبد المنعم النمر.
- انديا ونس فريدم لابي الكلام آزاد.
- تاريخ نشأة باكستان لشريف الدين بيرزاده.

(٢) ترجمته الذاتية المنشورة في مجلة افريشيا: / ١٢.

الإشراف لا مجال فيها للاختلاط مع عامة الأطفال وأبناء السوقه حرصا على صيانة اللغة وحفاظا على عادات الأسر الشريفة حسب مقاييس ذاك العصر كما كان أبوه يهتم بتثقيفه فكان يعلمه الكتب الابتدائية ويروى امامه قصص أبطال المسلمين وأهم أحداث التاريخ الإسلامي وعين أحد الإنكليز من المعتنقين الجدد للإسلام لتعليمه مبادئ الإنكليزية وكان يريد أن يراه من علماء الدين فأدخله في المدرسة الفرقانية عام ١٩١٢م واجتاز مرحلة الثانوية بعد سنتين ولضعفه في الرياضيات نجح بدرجة ثانية والتحق بكلية دار العلوم في حيدر آباد ليواصل دراسته بعد الثانوية غير أنه اضطر إلى قطعها بسبب صحة والده المنحرفة وظروفه العائلية ومات والده عم ١٩٢٠ حينما كان عمره ١٧ سنة([1]).

كان مولعا بالقراءة والمطالعة غير راغب في اللهو فلم يزل مستمرا في تثقيف نفسه وتنويع معلوماته لم يحضر دار السينما إلا مرتين في حياته باصرار بعض أصدقائه([2]).

شعر المودودي في سن مبكرة بأنه يملك مقدرة غير عادية

---

(١) أيضا ومقدمة رسائل المودودي: / ١٦.

(٢) مجلة افريشيا: /٤٥ عدد خاص عن المودودي.

للكتابة وبدأت كتاباته تنشر في المجلات وهو دون سن الخامسة عشرة وكان أخوه الأكبر يمارس مهنة الصحافة فشارك معه فترة. وقد ساعد في تنمية مواهبه الكتابية كثرة الأدباء والشعراء والكتاب الموهوبين في تلك الفترة أمثال شبلي النعماني وأبي الكلام آزاد، ومحمد إقبال وأكبر إله آبادي وظفر علي خان الذين يعتبرون أصحاب مدارس مستقلة في الكتابات الأدبية والشعر، والصحافة الإسلامية. كما كانت له صداقة مع نياز فتحبوري صاحب مجلة "نيكار".

اختار المودودي الصحافة مهنة له، ورأس تحرير كل من تاج" ومسلم" والجمعية" التي كانت لسان حال جمعية علماء الهند، وأثبت كفاءته في الصحافة كما أنه أثناء اشتغاله بالصحافة لم يغفل عن دراسته فتعلم اللغة الإنكليزية وهو يراس تحرير مجلة "تاج" وتعلم بعض كتب المنطق" والفلسفة" والأدب" والفقه" والتفسير" والحديث" لدى الشيخ عبد الستار نيازي والشيخ المحدّث أشفاق الرحمن الكاندهلوي وغيرهما وهو يرأس تحرير مجلة "مسلم" و "الجمعية" وان لم تكن دراسة تفرغ(١) وظهرت براعته في كتابة

(١) مجلة افريشيا: صـ - ١٤ وخطوط مودودي: صـ - ١٦- ١٧ وأبو الأعلى المودودي فكره ودعوته: صـ - ٣٣.

سلسلة من المقالات حول "نظام الحرب في الإسلام". دفاعا عن طعن بعض زعماء الهندوس بعد مقتل أحدهم على أيدي شاب مسلم متحمس بسبب الاساءة إلى الرسول صلى الله عليه وسلم، نشرت هذه المقالات في حلقات أثناء رئاسة تحريره لجريدة الجمعية خلال عام ١٩٢٨ وكتابه "الجهاد في الإسلام" عبارة عن تلك المقالات وقد كان هذا الكتاب بمثابة بطاقة شخصية للمودودي ومن هنا بدأ يستقل فكريا فترك مهنة الصحافة وانتقل إلى حيدر آباد واشترى مجلة "ترجمان القرآن" لتكون معبرة عن أفكاره وتمهيدا لبدأ حركة جديدة.

والنقاط التي يمكن أن تساعد في تحليل شخصية المودودي هي كالتالي:

١) لم ينشأ نشأة علماء الدين في بلاده كما لم ينقطع للثقافة العصرية بل حاول الجمع بين الثقافتين معتمدا على قوة مطالعته فاتحا عينه على ما يجرى حوله وهذا الأسلوب أعطاه الثقة بالنفس في فهم الحقائق والاستغناء عن الرجوع إلى الآخرين يقول متحدثا عن نفسه: "أنا لست من علماء الدين ولا من طبقة المثقفين بل أنا وسط بينهما ولم أتعود أن آخذ الدين من شخصيات الحاضر والماضي بل من

الكتاب والسنة مباشرة"([1]).

٢) فتح المودودي عينه وحركة الخلافة "كانت على قدم وساق فشارك فيها" وحركة الاستقلال كانت تضم بين قادتها المسلمين والهندوس وكانت قضية الساعة فشارك فيها وهو صغير السن بل قد ألف سيرة غاندي وصادرته المخابرات البريطانية قبل أن تطبع وصار عضوا في جمعية سرية للثورة ضد الإنكليز تم تركها([2]).

٣) كان دائم التردد إلى مدينة حيدر آباد التي كانت عاصمة الإمارة الآصفية وتضم نخبة من العلماء والأدباء والكتاب البارزين في دار الترجمة ودائرة المعارف العثمانية والجامعة العثمانية بل ارتبط بدار الترجمة فترة وقام بترجمة جزء من "كتاب الاسفار الأربعة" في الفلسفة للصدر الشيرازي. كما كتب تاريخ الإمارة الآصفية وتاريخ "حكومة آل سلجوق"().

٤) كان نهما بالقراءة يطالع كل ما يقع تحت بصره عايش المتدينين والمنحرفين من أمثال نياز فتحبوري رئيس مجلة

---

(١) يراجع كتابه رسائل ومسائل.

(٢) ترجمته الشخصية بقلمه المنشورة في مجلة افريشياء وغيرها.

"نكار" وأحمد برويز احدد "انكار السنة" ومـــر بمراحـــل: إنسان عادي مثقف ذو مقدرة كتابية، إنسان حائر شـــاك في المعتقدات() إنسان مقتنع بفكر متحمس له ومدافع عنه متحرك لأجل تطبيقه يقول متحدثا عن نفســـه: "قـــرأت كثيرا في زمن جاهليتي وأدخلت في دماغي مكتبة كاملة في الفلسفة الجديدة والقديمة، والعلوم الطبيعيـــة والاقتصـــاد والسياسة غير أني لما قرأت القرآن بوعي وإدراك شـــعرت كأن جميع ما قرأته سابقاً لا يساوى شيئاً والآن أدركـــت حقيقة العلم. ويخطر ببالي أن كانت وهيجـــل ونطشـــه وماركس وجميع مفكري العالم ليسوا إلا كأطفال ضـــيعوا حياتهم في السعي لحل معضلات الحياة بطريقة غير صحيحة لعدم وصولهم إلى القرآن. فالقرآن هو نقطة التحـــول في حياتي والمفتاح الرئيسي لحل جميع معضلات الحياة().

٥) اشتغاله بالصحافة أثار فيه روح النقاش واعطاه قوة الجدل وكوّن لديه أسلوباً خطابياً رصينا متميزاً مزوداً بقوة الحجة والإقناع وزاد في مقدرته الجدلية لغته البليغة وإيمانه القوى بهدفه وثقته بنفسه ثقة غير قابلة للاستسلام امام صـــديقه وعدوه على حد سواء.

٦) عاصر المودودي نخبة غير قليلة من كبار رجال العلم والدين وخاض مع عديد منهم في معارك علمية مدافعا عن آرائه أو مناقشا أفكارهم وكان في الحالتين عنيفا غير قابل للاستسلام بارعا في الجدل والنقاش.

٧) كان يتميز بغنى النفس، وقوة القلب، والثبات والمثابرة على العمل ومع أنه كان عديد من معاصريه يفوقه في الذكاء وقوة الذاكرة وغزارة العلم غير أن أحدا منهم لم يعرف بثباته على هدف معين ولعل لطبيعة المودودي بعض تأثير في عدم بقاء اضرابه معه فترة طويلة في كركته ولا شك أن هذه نقطة ضعف في حياة صاحب دعوة وان كان الثبات على النهج والثقة بالنفس فضيلة في حد ذاتها.

٨) المودودي مفكر وكاتب أكبر من داعية ومربي وهذا هو الفارق الأساسي بينه وبين حسن البنّا مؤسس "حركة الإخوان المسلمين" المعاصرة فتأخذ المناقشات والردود جانباً كبيراً من حياة المودودي ووقته وجهده حينما يتجنب البنّا كل ما من شأنه أن يثير قطاعاً من المسلمين ضده ويؤدي إلى الفرقة والانتشار. ينطلق المودودي من نقد شامل وهدم كامل لبناء جديد حينما يحرص البنا على

إبقاء الأنقاض وعدم التعرض بخلايا النحل والتركيز على البناء مستفيدا بكل لبنة صالحة ولو كانت من صنع غيره.

٩) بدأ المودودي دعوته بشعور أنه اعتنق الإسلام من جديد يقول في ذلك:

"فالواقع اني من المسلمين الجدد اعتنقت الإسلام بعد اختبار ودراسة دقيقة.() لذا يغلب عليه حماس أكثر من الدعاة التقليديين في طرح أفكاره. وان هذا الشعور واضح في أفكاره.

١٠) نشأ المودودي والحرب العالمية الأولى (١٩١٤ – ١٩١٨م) تدمر العالم وتم تكوينه العقلي وبدأ حياته الحركية ودول العالم تئن من ويلات الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩ – ١٩٤٥م) وهاجر إلى باكستان والهند تشتعل بنار الاضطرابات الطائفية وعاش أياما وحوله جثث وأشلاء من ضحايا تلك الأحداث فلا بد أن تترك هذه الأمور آثاراً في نفسيته وفي أسلوب تفكيره وفي الخطط التي اتخذها لمستقبل الإسلام والمسلمين().

نشأة الجماعة وتطورها:

منذ أن استقر المودودي في حيدر آباد، واشترى مجلة "ترجمان القرآن" واصبح صاحب الامتياز ورئيس تحرير لها استقل فكريا

ووجد مجالا واسعاً للكتابة حول القضـــايا الفكريـــة والسياســـية ونشرها دون الرجوع إلى أحد.

وكانت فترة الثلاثينات ساخنة بين الزعماء المسلمين المنـــادين للقومية المشتركة والتعايش السلمي بين المسلمين والهندوس وتعاون الجميع لمطاردة الإنكليز تحت لواء حزب المؤتمر الوطني، والزعمـــاء الذين بدؤا ينادون إلى وطن مستقل للمسلمين ويركـــزون علـــى انفصال المسلمين على أساس القومية من الهندوس تحت لواء رابطة المسلمين بقيادة جناح.

في هذه الفترة بدأ المودودي مقالة حول "الصـــراع السياســـي ومستقبل المسلمين" في حلقات وبدأ يفنّد آراء القـــائلين بفكـــرة القومية المشتركة والتعايش السلمي بعد الاستقلال وخـــاض مـــع زعماء حزب المؤتمر الوطني حربا شعواء. ثم التفت إلى فكرة رابطة المسلمين المبنية على القومية المسلمة وبدأ يذكر مضارها ويدعو إلى فكرة إسلامية جديدة غير قائمة على أساس القوميات واســـتمرت هذه المقالات ثلاث سنوات وهي التي فتحت الطريق إلى إنشـــاء جماعة مستقلة حيث أن محمد إقبال الذي كان يحمل نفس الاتجاه استدعى المودودي إلى بنجاب وابدى رغبته في التعاون معه وحث أحد أهل الخير لمساعدة المودودي بتخصيص قطعة أرض لمهمتـــه

تكون مقرا لانطلاقه غير أن محمد إقبال انتقل إلى رحمة الله في عام ١٩٣٨م بعد أيام قليلة من وصول المودودي وبقـــي المـــودودي وحيدا يخطط للمستقبل إلى أن اجتمع حوله رجال وبدأت الحركة الإسلامية الجديدة في شبه القارة الهندية().

وانشئت الجماعة الإسلامية عام ١٩٤١م في جمع كان قوامه ٧٥ شخصاً من بينهم نخبة من العلماء والكتاب البارعين أمثال أمين أحسن إصلاحي، ومحمد منظور النعماني، وأبو الحسن علي الندوي وانتخب المودودي أميراً لهذه الجماعة().

كان شعار الجماعة "إقامة الدين" وإنشاء الحكومة الإلهية، وبدأت تظهر كتابات المودودي واحدة تلو الأخرى حول مواصفات "الدولة الإسلامية" ونظام "الحكم في الإسلام" وبراعته على الأنظمة الأخرى. كما تناول القضايا الاجتماعية في الإسلام والقى الضوء على تاريخ الإصلاح والتجديد بنقد وتحليل وبدأت دعوة الجماعة تنتشر في أوساط طلاب الجامعات ونخبة من المثقفة وبعض قطاعات الجماهير.

انطلقت الجماعة محددة أهدافها مع مواجهة العراقيل واســـتمر المودودي على خطة بعزم وثبات ومضى في توسيع نطاق دعوتـــه وتنظيم شئون جماعته رغم المخالفة من بعض الأوساط ومفارقـــة

معظم أعضاء الجماعة الأوائل البارزين من رجال العلم والفكر حتى أصبحت الجماعة ذات رصيد فكري كبير وتأثير ملموس في الجيل الجديد من أبناء المسلمين.

وبعد انقسام الهند ونشأة باكستان انتقل المودودي إليها ووجد وضعا غير الذي عهده في الهند واستمر في الدعوة إلى إنشاء الحكومة الإلهية وتطبيق القوانين الإسلامية في هذه الدولة الجديدة وقد واجه عقوبة السجن والإعدام أيضاً من قبل الحكومة الباكستانية وخاضت الجماعة في حياته الإنتخابات البرلمانية كما دخلت في معارك فكرية في قضايا عديدة وتيارات منحرفة كالقاديانية وفتنة أفكار السنة والعلمانية.

وفي عام ١٩٧٢ ترك المودودي منصب أمير الجماعة وبقي كأب روحي ومشرف عام لها إلى أن توفاه الله عام ١٩٧٩م. بعد حياة خصبة في المجال الفكري والدعوى.

أما أعضاء الجماعة الإسلامية الذين بقوا في الهند فاستمروا في العمل مع اختلاف بسيط في المنهج حسب اختلاف ظروف البلدين السياسية وعملها انحصر في مجال الفكر والدعوة بحكم الأوضاع والظروف وكان المودودي قد حدد خطوطا رئيسية للعمل في الهند().

الطرح الفكري:

انشئت حركة الجماعة الإسلامية بازاء الحركات الإجتماعية السائدة في العالم في:

(١) الجمهورية الرأسمالية (٢) الإشتراكية بأنواعها (٣)الغاشستية بفروعها المختلفة. الناجمة عن بطن العلمانية والحضارة ذات الجذور التاريخية بفصل الدين عن السياسة والثورة على كافة القيم الإجتماعية والأخلاقية. اخترع الإنسان هذه الأنظمة الفكرية وارتضاها كايديولوجيات للحياة في عصر الإنفجار التقني والتطور العلمي.

١) تعتبر الحركة الإسلامية التي تطرح البديل لهذه الايديولوجيات حركة ذات أهداف وهي ليست فرقة كالفرق التي نشأت في التاريخ الإسلامي ولا تجمع سياسي يهدف إلى تغيير أشخاص واختيار الآخرين مكانهم بل انها تقدم نظاما شاملا للحياة ومبادئ تريد تطبيقها في كافة مجالات الحياة فهي لا تؤمن بالإصلاحات الجزئية والترقيعات في النظام السياسي القائم بل تريد التغيير الجذري الكامل في السياسة والأخلاق والاجتماع

والاقتصاد والتعليم والفنون والآداب والقـــانون والإدارة وتحويلها إلى نظام جديد وروح جديدة فهي تقتضي بالطبع أن تتحول إلى دولة متكاملة ذات أهداف إصلاحية().

٢) ترى هذه الحركة أن جميع مظاهر الشر والفساد في العـــالم يرجع إلى إنكار الله والإعراض عن الشريعة التي وضعها الله للأفراد والأمم، لذا تتخذ هذه الحركة مبدأ حاكمية الإله، أساسا لها وتنادى إلى تطبيق مبدأ الحاكمية في التشريع مثل ما هو نافذ وسار في الأمور الكونية لا يخرج فيها شيء من أمر الله وطاعته.

٣) تهدف هذه الحركة إلى إخراج الناس من سلطة النـــاس إلى سلطة الله بالقضاء على كافة الأنظمة والقوانين والأفكـــار والسلطات التي لا تخضع لقوانين الله.

٤) هذه الحركة ضد كافة الفوارق الطبقية والعنصرية والقومية والوطنية وهي لا تريد إصلاح أمة أو شعب بـــل تريـــد إصلاح الإنسانية كلها.

٥) هذه الحركة تريد تأسيس نظام الحضارة كله على مبـــادئ وقيم مستقلة كامنة في فطرة الناس والتي أذكاهـــا وبينـــها أنبياء الله ورسله في صورتها المثالية، فهي لا تكتفي بطـــرح

الأفكار فقط بل تكون جيلا مثاليا ومجتمعات مثالية بتربية أفرادها على تلك المبادئ والقيم.

٦) ترى هذه الحركة بأن تختار الأساليب التربيهة لتحقيق أهدافها وتتجنب طرق المؤامرات والدعايات الكاذبة وأساليب المكر والخديعة لأنها تؤمن بأن تكون طريق الوصول إلى مقصد اسمى وهدف نبيل أيضا صحيحة وشريفة().

التصور السياسي:

وهو العمود الفقري في دعوة الجماعة الإسلامية أو الحركة الإسلامية التي أنشأها المودودي.

تقدم هذه الحركة نظاما مستقلا وجديدا لتشكيل الدولة وتؤسس هذا النظام على أن مصدر الحاكمية هو الله وحده وكما أنه لا شريك له في حاكميته التكوينية كذلك لا شريك له في حاكميته التشريعية أيضا وأنه لا يملك السلطة الطبيعية (PHISICAL AUTHORITY) فقط بل يملك السلطة السياسية (POLITICAL AUTHORITY) والسلطة التشريعية (LEAGAL AUTHORITY) أيضاً().

تهدف هذه الحركة إلى سلب الحاكيـــة مـــن جميـــع الأفـــراد والبرلمانات والأمم والجماهير ولا تترك لا حد حـــق التشـــريع أو ممارسة السلطة دون الخضوع لطاعة الله().

يقول المودودي:

"هذا هو الأساس الذي ارتكزت عليه دعامة النظرية السياسية في الإسلام أن تنزع جميع سلطات (POWERS) الأمر والتشـــريع من أيدي البشر منفردين ومجتمعين"().

ويقول متحدثا عن مزايا الدولة الإسلامية:

"والمزية الثانية للدولة الإسلامية ان الأساس الذي يقوم عليـــه بناؤها هو تصور (مفهوم) حاكمية الله الواحد الأحد، وان نظريتها الأساسية أن الأرض كلها لله وهو ربها والمتصرف في شئونها فالأمر والحكم والتشريع كلها مختصة بالله وحده وليس لفرد أو أسرة أو طبقة أو شعب بل ولا للنوع البشري كافة شيء من سلطة الأمـــر والتشريع"().

تقدم الحركة تصور "خلافة الجمهور" بدل تصور "حاكمية الجمهور" أو "سلطة الشعب" حتى لا تكون الدولة خاضعة لمطامع القائمين عليها ولا لأهواء الجماهير ومعنى ذلك أن المؤسسة التي تقوم بإدارة الدولة الإسلامية يجب عليها أن تعتبر

نفسها بهيكلها الإداري الكامل خليفة الله في الأرض. ومن مقتضيات فكرة "خلافة الجمهور" أن يقوم نظام الحكومة الإلهية الإجتماعي بتأييد من آراء الجماهير فإن الأكثرية من الشعب هي التي تختار أفرادا صالحين للقيام بأعمال الدولة وهي تقوم بتطويرها والتغييرات فيها دعت إليه الحاجة().

إن الدولة المنشودة لدى الجماعة الإسلامية تتخذ استراتيجيتها ومواقفها وقوانينها من الكتاب والسنة وهي تقدم دائما المصالح الأخلاقية للشعب على مصالحه المادية.

وهي دولة تكون لا حزبية قائمة على الشورى لا مجال فيها لكثرة الأحزاب والتجمعات السياسية كما أن هذه الدولة لا تقوم على أسس قومية ووطنية أو قبلية وتكون أبوابها مفتوحة لجميع من يقر بمبادئها ومن حقهم أن يشاركوا فيها().

يقول المودودي متحدثاً عن وضعية الدولة الإسلامية:

"فلا يصح إطلاق كلمة الديمقراطية على نظام الدولة الإسلامية بل أصدق منها تعبيراً كلمة "الحكومة الإلهية" أو الثيقراطية (Theo-cracy) ولكن الثيقراطية الأوروبية تختلف عنها الحكومة الإلهية (الثيقراطية الإسلامية) اختلافاً كليا.. ويضيف ولئن سمحتم لي بابتداع مصطلح جديد لآثرت كلمة "الثيقراطية الديمقراطية".

(Theo democracy) أو "الحكومة الإلهية الديمقراطية" لهـــذا الطراز من نظم الحكم لأنه قد خوّل فيهما للمســـلمين حاكميـــة شعبية مقيدة (Limited Popular Sovereignty)().

وهناك مزايا وخصائص وحدود العمـــل للســـلطة التنفيذيـــة والسلطة القضائية وصفات أولي الأمر والحقوق المدنيـــة وكيفيـــة تشكيل الحكومة وتشكيل مجلس الشورى يبينها المودودي بايضاح وهي كلها متفرعة عن التصور الأساسي حول "حاكمية الله"().

خصائص الطرح الفكري للجماعة الإسلامية:

اتسم الطرح الفكري للجماعة الإسلامية بالخصائص التالية:

١) عرض الإسلام كنظام شامل للحياة مع إعداد رصيد فكـــري كبير وقوى لإثبات براعة الإسلام على الأنظمـــة الوضـــعية والديانات الأخرى المتبعة بأسلوب مقارن لذا تعتبر قاعـــدتها الفكرية أكثر عمقا من الحركات الإسلامية الأمرى المعاصرة.

٢) تناول القضايا الإجتماعية والمسائل التي نشأت عن الحضـــارة الغربية بالمناقشة واثبات صحة وجهات النظر الإسلامية فيها.

٣) كشف زيف الحضارة الغربية وانهيار أسسها وبيان ما فيها من ويلات للإنسانية.

٤) محاربة التيارات المعادية للدين كالعلمانية والقومية بأسلوب هجومي ولغة قوية رصينة وعدم اللجـــوء إلى التـــأويلات الباردة أو المهادنة مع تلك التيارات أو تقديم التنازلات لها.

٥) معالجة ظواهر التجدد والتغريب في المجتمعات الإسلامية من خلال الكتابات القوية حول مختلـــف جوانـــب الفكـــر الإسلامي التي ردت ثقة الشباب المسلم بدينه وأدت دوراً كبيراً في إزالة داء "مركب النقص" من المجتمع الإسلامي.

ومن الحق أن يقال ان عبقرية المودودي ظهرت في نقد الحضارة الغربية وانظمة الفكر الحديثة وكتاباته في هذا الموضـــوع تتســـم بالدقة والرصانة والأسلوب الاستدلالي القوى وتفوق جميـــع مـــا كتب في الموضوع خلال هذا القرن كما أنـــه تنـــاول القضـــايا الاجتماعية في الإسلام "كالحجاب" و"حقوق الزوجين" و "تحديد النسل" ببراعة فائقة وأسلوب هجومي غير اعتـــذاري وان كـــان يشاركه في نقد الحضارة كتاب آخرون كمحمد إقبال والشـــاعر المتندر أكبر الله آبادي وعبد الماجد دريا بادي غير أن المـــودودي أكثرهم استيعابا وأقواهم أثرا فهو أقوى الـــدعاة الإســـلاميين في العصر الحديث على الإطلاق في قوة الاستدلال والمقـــدرة علـــى عرض الإسلام عرضا شاملا وهو من القلائل الذين تركـــوا أثـــرا

فكريا بالغاً في الجيل الإسلامي الجديد ولعل تأثيره خـــارج شـــبه القارة الهندية أكثر من داخلها وهذا يعود إلى أسباب عديدة مـــن أهمها موقف معاصريها من العلماء الإعلام المتحفظ نحو حركتـــه ودعوته والردود والمناقشات التي جرت بينه وبين الآخرين حـــول القضايا المختلفة.

وعلى عكس ذلك التحالف غير الرسمي مع حركة الإخـــوان المسلمين في أبان قوتها() أدى إلى انتشار فكر المودودي ومؤلفاتـــه على المستوى العالمي.

بل قد أثرت أفكار المودودي ومؤلفاته في تكوين المنهج لـــدى بعض قادة الإخوان المسلمين وإعلامها ويظهر ذلك واضـــحا في كتابات سيد قطب الشهيد حيث أن كثيرا من المصطلحات التي لم تكن معهودة في مؤلفات الإمام حسن البنا ومنهجه قد انتقلت من المودودي إلى السيد قطب وآخرين من مفكري الإخـــوان وهـــذا الموضوع يحتاج إلى بحث مستقل.

ملاحظات عامة:

لم تواجه دعوة إسلامية معاصرة مخالفة على الصعيد الفكـــري مثل ما واجهته دعوة الجماعة الإسلامية في شبه القارة الهندية وان سلاح النقد الحر الذي أصله المودودي واستخدمه في اســـتعراض

تاريخ الإصلاح والتجديد وجعله تمهيد الطرح فكره وعرض دعوته قد أصبح هو الآخر ضحية هذا السلاح فقد جاء في دستور الجماعة الإسلامية: أن لا يرى أحدا فوق مستوى النقد().

فكيف كان يمكن أن ينجو المودودي من تطبيق هذا المبدأ على طروحاته وأفكاره من قبل معاصريه وبني جلدته ويمكن تقسيم النقد الموجه إلى المودودي إلى نوعين:

١- نقد غير موضوعي استهدف شخصيته أو اجتهاده في بعض القضايا الفرعية أو ظهر نتيجة الخصومة بينه وبين المنادين للقومية المشتركة وهذا النوع من النقد ساقط عن الاعتبار لأنه غير موضوعي ومبني على الحزازات الشخصية.

٢- نقد موضوعي تحليلي يناقش آرائه ويبين نقاط الضعف فيما توصل إليه من نتائج في تفسيره للإسلام وقضاياه الأساسية أو استعراضه لحياة الصحابة وتناوله لموضوع الخلافة والملكية أو نقده لتاريخ الإصلاح والتجديد في الإسلام وقبل كل شيء في بيانه للعلة الغائية لمجيء الأنبياء والرسل وتحديد مهمتهم الأساسية.

ويمكن تلخيص هذه الانتقادات في النقاط التالية:

١) تركيزه على الجانب السياسي بلغ إلى درجة عكس القضية

في تحديد مهمة الأنبياء والرسل حيث يقول:

"فغاية مهمتهم في الدنيا إقامة الحكومة الإلهية وتنفيذ نظام الحياة بجميع أجزائه كما جاؤا به من عند الله وهذه هي الغاية التي فرض الإسلام من أجلها العبادات: الصلاة والزكاة والصوم، والحج والتعبير عنها بالعبادة لا يعني انها هي العبادة وحدها بل معنى ذلك انها تعد الإنسان لتلك العبادة: فكأنها مقررات تدريبيه لازمة لها().

فهنا يلاحظ بعض ناقديه من أهل العلم بأن الوسيلة تحولت إلى الغاية والغاية صارت وسيلة.

يقول العلامة سليمان الندوي الذي يعتبر الحكم في الإسلام أعظم نعمة من الله بعد الوحي والشرائع دون أن يذكر إسم المودودي:

"لا يوجد حرف واحد في سائر تعاليم الإسلام يدل على أن قيام الحكومة هو الهدف الأساسي لهذه الدعوة وان العقائد والأعمال والشرائع والأحكام والحقوق والواجبات كلها تمهيد لتحقيق هذا الهدف بل الصحيح الثابت ان الشرائع والحقوق والواجبات هي الغاية وقيام الحكومة الصالحة ضمان لاستمرار هذه الأمور وسهولة أدائها وعدم ضياعها فالحكومة مطلوبة في الدين عرضا لهذا السبب"().

ومما لا شك فيه أن المودودي في تحديد مفاهيم المصطلحات

الأربعة للقرآن الكريم قد وقع في بعض المبالغات والمغالطات بسبب الظروف السياسية التي عاش فيها ومشاهدته لإهمال جانب من الدين من قبل الدعاة وعامة الناس وشقاء المسلمين تحت نير الاستعمار الأجنبي لكافة أقطار العالم الإسلامي() ومن هنا جاء توسعه في النقد ومثاليته الزائدة في تصور الحكم الإسلامي وتحديد خصائص الدولة الإسلامية بحيث لا تكاد تتوفر في أي عصر من العصور وحتى الخلافة الراشدة لا تبقى كاملة المعالم حسب مقاييسه ويتجلى ذلك واضحا في كتابه "الخلافة والملكية" والذي أثار ضجة كبيرة كما أن هذا الإتجاه دفع البعض إلى تتبع مظاهر الجاهلية في حياة أبي بكر وعمر وغيرهما من الراشدين().

كما أن هذه المثالية دفعته إلى الحكم بفشل كافة المجددين ورجال الدعوة والإصلاح والتصور بأن منصب المجدد الكامل مازال شاغرا. والواقع أنه لو أخذ النجاح في إقامة الحكومة الإلهية مقياسا لفوز الدعاة ونجاح الدعوة فسوف يؤدي ذلك إلى القول بفشل معظم الأنبياء والرسل أيضا في مهمتهم – والعياذ بالله– و لم يقصد المودودي ذلك بالتأكيد غير أن المثالية في تصور الحكم وجعل قيام الحكومة الفعلية مقياساً للنجاح يضمن نتائج خطيرة وقد يرجع الحكم على مسيرة الجماعة الإسلامية نفسها بأنها لم تنجح في تحقيق مهمتها مع

أن الواقع يشهد بأن الجماعة لم تال جهداً في أداء دورها.

٢) "حاكمية الإله" في التكوين والتشريع حقيقة لا ينكرها مؤمن وان تطبيق الشريعة الإسلامية فريضة على الناس غير أن الإيمان بهذا المبدأ لا يعني الإصرار على نفي السلطة من البشر فيما لا صلة له بالدين وقصة الخليفة الراشد على بن أبي طالب مع الخوارج حينما رفعوا شعار "لا حكم إلا الله" معروفة حيث رد عليهم بقوله "كلمة حق أريد بها الباطل" والمودودي نفسه يقرر "خلافة الجمهور" ويرى أن الأغلبية من الناس هي التي تقوم بانتخاب رئيس الدولة الإسلامية وعزله(). إذن لا يبقى للإصرار على نفي السلطة من الشعب معنى ويصير الخلاف اصطلاحيا فقط لا فاصلا بين الإيمان والكفر كما يشعر ظاهر كلامه.

ومن ناحية ثانية قد طغى التركيز على صفة الحاكمية لله سبحانه على صفاته الأخرى وأسمائه الحسنى ولا شك أن هذا نوع من المغالاة جاء لدى المودودي بسبب حماسه الشديد لإقامة "الحكومة الإلهية" وظهر آثاره في أماكن من تفسيره وكتاباته().

٣) يلاحظ بعض ناقديه التناقض في التنظير والتطبيق في بعض القضايا كمسألة تولي المرأة مناصب الدولة في نظام

الإسلام حيث أنه لا يرى أي مجال لا في الرئاسة والوزارة ولا في مجلس الشورى.

ويقول بوضوح مستدلا بقوله تعالى:

"الرجال قوّامون على النساء" وحديث الرسول صلى الله عليه وسلم:

"لن يفلح قوم ولّوا أمرهم إمرأة" رواه البخاري.

هذان النصان يقطعان بأن المناصب الرئيسية في الدولة رئاسة كانت أو وزارة أو عضوية مجلس الشورى أو إدارة مختلف مصالح الحكومة لا تفوض إلى النساء وبناء على ذلك مما يخالف النصوص الصريحة أن تترل النساء تلك المترلة في دستور الدولة الإسلامية أو يترك فيه مجال لذلك وارتكاب تلك المخالفة لا يجوز البتة لدولة قد رضيت لنفسها التقيد بإطاعة الله ورسوله().

ويقول رداً على سؤال:

"وهكذا أوصد القرآن على النساء باب مجلس الشورى هو قوام على الأمة كلها.. ويزيد: فلا نجد في كتب التاريخ والا الحديث مثالا يشهد بأن النبي صلى الله عليه وسلم أو أحد الخلفاء الراشدين أشرك النساء في مجلس الشورى"().

ومع هذا التنظير الواضح والفتوى التي لا لبس فيها ولا غموض

كان وقوفه إلى جانب فاطمة جناح (أخت محمد علـــي جنـــاح) في معركتها الانتخابية لرئاسة الدولة بازاء أيوب خان في عام ١٩٦٤ كان محل استغراب الجميع وقد أساء هذا الموقف إليه وإلى جماعته كـــثيراً خاصة بعض تعبيراته الحماسية: "إن أيوب خان لا خير فيه سوى أنه رجل، وان فاطمة جناح لا عيب فيها سوى أنها إمرأة، وتأويل هـــذا الموقف بان الأحكام تتغير بالمصالح لم يقنع خصومه ولا محبيه.()

أما واقع نفوذ الجماعة الإسلامية فلا شك أنه كبير في أوساط المثقفة وشباب الصحوة الإسلامية على مستوى العـــالم غـــير أن قاعدتها الداخلية في شبه القارة الهندية ما زالت في حاجة إلى تقويته حيث أنه لا يمكن أحداث أي انقلاب دون التغلغـــل في أوســـاط الجماهير والقطاعات المختلفة من الشعب. وان نتائج مشـــاركتها في الانتخابات العامة في باكستان في حياة المـــودودي وبعـــدها لا تتناسب مع عظم دعوتها والفترة الزمنية التي وجدها للعمل لذا لا بد من المقر الذاتي والاحتساب الداخلي لأنه عمل صحي وبنـــاء يساعد في التخطيط السليم للمستقبل.

ونسأل الله التوفيق لتكون كلمته هي العليا.

جماعة التبليغ

مبـــادئ وأهـــداف

أنشئت جماعة التبليغ في الهند على يد الشيخ محمـــد إليـــاس الكاندهلوي المتوفي عام ١٣٦٤هـــ، وكانت نواتهـــا الأولى مـــن الريفيين اللذين استطاع جمعهم حوله بعد جهد بليغ من منطقـــة ميوات في ولاية هريانه الغارقة في الجهل والبعيدة عن كل معـــالم الثقافة، ولم يكن لهؤلاء الريفيين نصـــيب مـــن الإســـلام غـــير الاسم،وإلا فهم كانوا يشاركون الهندوس في كثير مـــن التقاليـــد الشركية والأفراح والأعياد، وهذا الوضع هو الذي دفع الشـــيخ محمد إلياس إلى القيام بالموعظة فيهم وإخراجهم إلى بيئة أخـــرى صالحة، وبعد فترة فإن مجموعة منهم يقدر عددها بنحـــو ١٢٠٠ شخص من المهتدين المتحمسين للصلاح والإصلاح أصبحت فيما بعد نواة لقيام جماعة إسلامية عالمية لا تخلو اليوم قارة من المنتمين إليها والتابعين لها في الخروج في سبيل الله من أجل دعوة الناس إلى حياة الالتزام والتمسك بالدين.

ومن ناحية ثانية كانت هناك حركة من قبل الهندوس لتحويل المسلمين إلى الديانة الهندوكية عرفت باسم (شودهي شنكتن)، جعلت الشيخ محمد إلياس أكثر حماسا لإنقاذ المسلمين من هذه الفتنة والقيام بالدعوة الإصلاحية حتى لا ينجح الكفار في تحقيق أهدافهم في إغواء وتضليل البسطاء من المسلمين، يقول مؤسس الدعوة في هذا الصدد:

{يجب أن نسارع في العمل؛ لأن هناك مخاطر شديدة من ناحيتين محاولة إدخال المسلمين في الديانة الهندوكية وكذلك في أوساط العوام والجهلة من الناس، وناحية الإلحاد في الدين والدهرية التي تتواكب مع السياسة والحكومة الاستعمارية الانكليزية([1])} ورغم عدم الحماس من قبل الطبقة المثقفة ورجال الدين والعلماء في تأييد الجماعة بسبب بساطتها في الأسلوب انتشرت الجماعة في جميع أنحاء العالم، واستطاعت أن تترك آثارا ملموسة في أوساط الجماهير وعامة الناس، وعظم أمرها حيث أصبح من السهل الميسور لها جمع ملايين الناس في اجتماعاتها دون استخدام أية وسيلة عصرية للإعلام حتى الإعلان في الجرائد، وقد ساعد في فرض شعبيتها خاصة في شبة القارة الهندية ابتعادها عن ما يؤدي

(١) ملفوظات ص: ٧٢ (من كلمات الشيخ المؤسس)

إلى الفرقة واختلاف ووجهات النظر، وفتح باب الانتماء إليها لكل من ينطق بالشهادتين، ثم مواصلة تنظيم رحلاتها إلى المناطق القريبة والبعيدة وعدم اختيار الأساليب الإدارية وتحديد المسميات والمناصب التي تتسبب في حدوث الانقسامات داخل الجماعة، بسبب توزيع تلك المناصب فيها كما هو الحال في الجماعات الأخرى.

في عام ١٩٣٨م أثناء وجوده في المملكة العربية السعودية اجتمع مؤسس الجماعة الشيخ محمد إلياس مع مجموعة من أفراد الجماعة البارزين بجلالة الملك عبد العزيز آل سعود رحمه الله، وقد أكرمهم الملك وأحسن وفادتهم وقربهم إليه وجلس معهم نحو ٤٠ دقيقة عرض فيها الشيخ محمد إلياس منهجه في التبليغ وكان كلام الملك معهم يدور حول التوحيد والتمسك بالكتاب والسنة وإتباع الشريعة ثم ودعهم بحفاوة وتكريم([1]).

كما أن الشيخ احتشام الحسن أحد رفاق المؤسس كتب تعريفا موجزا باللغة العربية بالجماعة وشرح فيه أهداف الدعوة وقدمه إلى الشيخ عبد الله بن حسن آل الشيخ والقاضي ابن بليهد فأكدا على الدعم والمساندة بالتنسيق مع الأمير فيصل بن عبد العزيز([2]).

---

(١) الشيخ محمد إلياس ودعوته للشيخ أبي الحسن علي الندوي ص: ٣٧.

(٢) الشيخ محمد إلياس الكاندهلوي ص: ٣٧.

المنهج:

لكل جماعة إسلامية من الجماعات الدائرة في فلك أهل السنة والجماعة منهج دعوي ترى أنه الأنسب والأمثل للنهوض بالأمة مما هي فيه من حال لا يرضى كل غيور مهتم بمصير الأمة، وكانت رؤية الشيخ محمد إلياس تنطلق من دعوة الناس إلى التمسك بستة صفات رأى فيها أنها جمعت خصال الإسلام من عقيدة وعبادة ومعاملة ومعاشرة ولا يعني أنها كل الإسلام بل فيها الأسس والقواعد العامة التي تصلح لأن تكون اللبنة الأولى لأي دعوة إصلاحية، وهذه الأسس والمبادئ الخاصة بالجماعة على النحو التالي:

١. الكلمة الطيبة – بمعنى تحقيق معاني لا إله إلا الله محمد رسول الله – في حياة المسلم بحثه على إتباع أوامر الله واجتناب نواهيه.
٢. إقامة الصلاة ذات الخشوع والخضوع.
٣. العلم والذكر: والمقصود به الفضائل دون تفاصيل الأحكام والأمور الأصولية الدقيقة.
٤. إكرام كل مسلم واحترامه وتقديره والتعامل معه بلطف ورفق.

٥. الإخلاص وتصحيح النية.

٦. النفر في سبيل الله والخروج لأجل الدعوة وهي عبارة عن الانتقال من مسجد إلى مسجد ومن حي إلى حي ومن بلد إلى بلد لإصلاح النفس وإصلاح الغير والتعود على الطاعة([1]).

والمركز الرئيسي للجماعة هو المسجد القديم في منطقة نظام الدين بدلهي عاصمة الهند، يقيم في الغرفة المجاورة له أميرها ويعود إليه الإشراف على الجماعة وتوجيه عملية تعيين الأمراء لكل منطقة وفي كل بلد بالتشاور مع القائمين بالدعوة في مناطق مختلفة، وبعد وفاة آخر أمير للجماعة وهو الشيخ إنعام الحسن – ابن أخت الشيخ محمد إلياس – في تسعينيات القرن المنصرم، أصبح للجماعة "مجلس شورى" ولم يعد هناك أمير واحد للجماعة.

وليس للجماعة نظام مكتوب أو سجل ثابت للأعضاء أو رسم عضوية بالجماعة، كما أنه ليست لها ميزانية ولا جهاز إداري، ولا

---

(١) يقول مؤسس الجماعة إن الطريقة التي اخترناها للدعوة إلى الله هي الطريقة التي كانت في عصر الرسول صلى الله عليه وسلم، أما الأساليب الأخرى كتأليف الكتب أو كتابة المقالات فقد بدأت بعد عصر الرسول وفق الحاجة للعمل في عامة الناس فالطريقة الأولى هي المفيدة والوحيدة. (كلمات مختارة ص: ٨٣)

تصدر عنها تقارير إعلامية، ولا تعتمد على الكتابة والإعلان عن اجتماعاتها وانجازاتها وإنما تستعمل الوسيلة الفطرية القديمة وهي الكلمة المنطوقة ولا تقوم بإصدار أي كتاب أو نشرة أو جريدة.

إذن ينحصر منهج جماعة التبليغ في وعظ المسلمين ومحاولة نقلهم من بيئات الغفلة إلى المساجد وتعويدهم على ترك المعاصي والالتزام بأوامر الله في الحياة اليومية.

والموعظة هي الوسيلة الوحيدة(١) لدى الجماعة تطلق عليها كلمة "البيان" وموضوعها الدائم أصول الدعوة الستة وفضائل الأعمال، وحياة الصحابة وذكر تضحياتهم لأجل الدعوة ونشر الإسلام بين الناس – وترى الجماعة أن في هذه الأمور كفاية لفتح باب التدين للإنسان المسلم وإذا تعود الإنسان على الحياة الملتزمة وفق منهج خاص ونشأ فيه الفكر للحياة الأخروية فهو يطبق على نفسه وأهله أوامر الله كلها ويتجنب النواهي.

أما الكتب التي تعتمد عليها الجماعة فهي ما يلي:

١. حياة الصحابة للشيخ محمد يوسف الكاندهلوي وهو نجل مؤسس الجماعة وأميرها الثاني بعد وفاة والده وقد توفى عام ١٩٦٥، وكان من كبار العلماء والمحدثين كما يدل

---

(١) يراجع كتاب جهه باتين (الكلمات الست) ومفتاح التبليغ لمحمد حسن خان الميواتي.

عليه استيعابه العجيب لكافة شئون حياة الصحابة بأسلوب تربوي مؤثر وهو مقبول ومتداول بين الدعاة، وكذلك له كتاب "أماني الأحبار في شرح معاني الآثار" للإمام الطحاوي وقد توفي قبل أن يكتمل كتابه.

٢. ومن الكتب المتداولة النافعة عند الجماعة: كتاب "الأحاديث المنتخبة في الصفات الستة" الذي يحتوي ١٥٠٧ أحاديث والكتاب ألف بالعربية ثم ترجم إلى لغات عديدة، وهو أيضا للشيخ محمد يوسف الكاندهلوي رحمه الله.

٣. "فضائل الأعمال" (منهج التبليغ) وهو عبارة عن أحاديث وآثار وقصص وروايات في فضائل الصلاة، والصيام، والحج، والزكاة، والصلاة على الرسول صلى الله عليه وسلم من تأليف الشيخ العلامة المحدث محمد زكريا الكاندهلوى المتوفي عام ١٩٨٢ وهو ابن أخ المؤسس، وصاحب التأليفات المعروفة في شروح الحديث من أهمها "لامع الدراري في شرح جامع البخاري" و "أوجز المسالك في شرح موطأ الإمام مالك" و"شرح الأبواب والتراجم لصحيح الإمام البخاري" وكلها متداولة بين أهل العلم في البلاد العربية.

٤. "رياض الصالحين" للإمام النووي وهو يستعمل كبديل لكتاب "تبليغي نصاب" في البلاد العربية فقط.

٥. "الأبواب الثمانية المنتخبة" من مشكاة المصابيح أعدها مؤسس الجماعة نفسه.

ويجدر بالذكر أن الكتاب "تبليغي نصاب" أو (منهج التبليغ) الذي نال إقبالا كبيرا في أوساط الجماعة وكان هو السند والمنهج والأساس، قد استقر مؤخرا آراء المسئولين في الجماعة على تغيير اسمه من "منهج التبليغ" إلى "فضائل الأعمال"، لعل ذلك بسبب كثرة النقد الموجه إليه بأنه يشتمل على روايات ضعيفة وموضوعة أيضا،وهذه بادرة طيبة،وقد أصبح كتاب "الأحاديث المنتخبة" يحل مكان فضائل الأعمال وهو خال من الروايات الضعيفة.

جماعة التبليغ والسياسة:

ترى الجماعة عدم الخوض في السياسة المحلية أو العالمية الراهنة قولا أو عملا، ويعلل مسئولوا الجماعة هذا الاتجاه بأن الخوض فيها يثير الأحقاد، ويفرق بين المسلمين، ويتسبب في إيقاف عمل الدعوة وعرقلته من قبل بعض الحكومات، ويجري على لسان أفراد الجماعة الواعين: "من السياسة الآن أن نترك السياسة" وإنما مهمتنا

هي إصلاح الفرد، ومن الأفراد يتكون المجتمع رعاة ورعية.

فالجماعة كجماعة لا تدخل في الانتخابات، كما أن أفرادها البارزين لا يمارسون النشاط السياسي لا كمرشحين ولا كمنتخبين، مع ذلك لا تقيم الجماعة أي حظر على أفرادها في التصويت بل يترك عامة الناس وشأنهم يصوتوا لصالح أي حزب دون توجيه أو مسئولية من الجماعة، وتعتبر الجماعة هذا من شئون أفرادها الخاصة لا دخل للجماعة فيها سلبا أو إيجابا.

أما مبدأ الشورى فهم يمارسونها في نظامهم أكثر من أي مؤسسة أخرى ويهتمون بالتقيد بتنظيماتهم البسيطة إلى درجة تؤدي بعض الأحيان إلى التجاوز عن الحد(١).

غير أن حال الجماعة يثير تساؤلا مشروعا وهو: هل تفصل الجماعة بين الدين والسياسة كعقيدة كما يتهمها كثير من ناقديها أو يتساور إلى الذهن من ظاهر أعمال الجماعة ونشاطها ومنهجها المعمول به؟

لا يؤيد ذلك تصريحات مسئوليها الكبار وأقوالهم وتأليفاتهم، وإنما هم يكررون القول:

---

(١) رأي آخر في جماعة التبليغ ص: ١٥ لسعد الحصين المقدم إلى ندوة اتجاهات الفكر الديني بالبحرين.

إن الوضع الحالي للأمة المسلمة هو أشبه شيء بالحياة المكيـــة للرسول صلى الله عليه وسلم التي كانت الجهود فيها مركّزة على ترسيخ العقيدة والأخلاق وبناء شخصية المسلم ليكـــون مســـتعدا للقيام بإعلان خلافة الله في الأرض وعمارتها ومادام هذا الوضـــع قائما فيجب على الدعاة التركيز على إصلاح الفرد،ومن خلالـــه يتم إصلاح المجتمع فيحصل التمكين في الأرض من الله سبحانه.

ولا تؤمن الجماعة في إحداث الانقلاب أو الثورة ضد الحكـــم القائم بالقوة لأنها ترى مثل هذه الثورات غير مجديه مـــا دامـــت قلوب الناس غير صالحة والمجتمع غير مهيأ لقبول الحكم الإسلامي، ومن هنا نرى أن بعض كبار الدعاة في العصر الحالي مع نـــداءاتهم المتكررة لإقامة الحكم الإسلامي واستعادة مجد المسلمين السياسي لا يرون أي غضاضة في انتمائهم إلى جماعة التبليغ، ويمكـــن أن يذكر على سبيل المثال اسم الشيخ أبي الحسن علي الندوي مؤلف كتاب "ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين" الذي يعتز بانتمائه إلى جماعة التبليغ مع إبداء ملاحظاته على بعض الجوانب، وقد كان ذا حظوة ومكانة لدى جميع مسئولي التبليغ، بل كان لسان حالهم في أحايين كثيرة مع المحافظة على هويته الخاصة، وقد اهـــتم بنقـــل أفكارهم إلى اللغة العربية وإعداد تراجم حياة لأمـــراء ومشـــايخ

جماعة التبليغ، يراجع لآرائه في الموضوع المجلد الأول من ترجمة حياته "كاروان زندكي" أو مسيرة الحياة ص: ٢٧٨ – ٣٢٨ وكتابه: الشيخ محمد إلياس ودعوته، وكتابه: "ترجمة حياة الشيخ محمد زكريا" ومقدمته على كتاب: ترجمة الشيخ محمد يوسف الكاندهلوي من تأليف الشيخ محمد ثاني الندوي، كما يناسب أن يراجع خطابه الموجه إلى الشيخ عبد العزيز بن باز، ومذكرات سياحته الأولى في الشرق الأوسط مع مجموعة من جماعة التبليغ، وقد قضى في مصر شهورا، وزار مناطق كثيرة في عام ١٩٥١م وفي المحلة الكبرى رحّب به الشيخ يوسف القرضاوي وكان وقت ذاك إمام المسجد وتحدث في اجتماع جماعة التبليغ.

ويقول الشيخ أبو الحسن الندوي الكاتب الإسلامي المعروف والداعية الشهير عن الشيخ محمد يوسف الكاندهلوي الأمير الثاني لجماعة التبليغ:

قد أتيحت لي فرصة لزيارة كبار أهل العلم والفضل في العالم الإسلامي وخاصة في العالم العربي، والتحدت إليهم وتبادل وجهات النظر معهم، وتعرفت على الحركات المعاصرة المعروفة، والشخصيات العلمية التي لها شأن يذكر، ورأيت كثيرا منهم، وعرفتهم عن كثب، وأتجرأ على أساس هذه المعرفة الواسعة (ولا

فخر) أن أقول:

"إني ما رأيت أحدا وهبه الله ذلك الإيمان بالغيب، والدعوة إليه، والشغف بالدعوة والانهماك فيها وقوة التأثير، ونصاعة البيان التي كان يملكها الشيخ محمد يوسف رحمه الله.

كان يمتاز في قوة الإيمان، والثقة بالله، والتوكل عليه، والهمة العالية والجرأة الفائقة، والاستحضار في الصلاة، والخشوع في العبادة والدعاء، ومعرفته الدقيقة لحياة الصحابة واستحضار أحوالهم، والاهتمام بإتباع السنة، وفهم القرآن والحديث الصحيح واستخراجه للنتائج من قصص الأنبياء، والملائمة بين القول والعمل، والجمع بين الدعوة والتأليف([1]).

وهذه هي بعض نماذج مما كان يخاطب به الشيخ محمد يوسف الجماهير:

"يحسب الإنسان أن الحقول والحدائق هي التي تقوم بها الحياة ولكن الله تعالى أهلك قوم سبأ رغم كثر بساتينها وحدائقها، و ربّى إسماعيل في واد غير ذي زرع.

إن العالم اليوم يؤمن بالجيش وقوة السلاح ولكن الله أهلك أبرهة مع جيشه الجرار بالطيور الصغيرة، وكذلك تنفي المعجزات

---

(١) مقدمة كتاب الشيخ محمد يوسف الكاندهلوي ص: ١٢.

يقين الناس بالظواهر"([1]).

ويقول:

"ومن الخطأ القول إن الحكم إذا حصل يزدهر الإسلام فإن الحكم والمال اليوم يئدان الإسلام والذين يتولون الحكم اليوم، وفي أيديهم الوسائل المادية الوافرة لا يمثلون أبا بكر وعمر رضي الله عنهما ولا يرجى منهم أي خير للإسلام، ولم يزدهر الإسلام إلا بالتضحيات، ولا يزدهر الإسلام اليوم إلا بهذا الطريق فإذا بذلت تضحيات للإسلام فإنه يزدهر وسط الأعداء، وإذا لم تبذل التضحيات انمحي أثره وإن كان للمسلمين صولة وجولة"([2]).

وفي أعقاب استقلال الهند اندلعت اضطرابات طائفية وشنّ الهندوس هجوما على المسلمين فقتل الآلاف من المسلمين، ونهبت الممتلكات، وانتهكت الأعراض وأصبح عشرات الآلاف من المسلمين مشردين ولاجئين في المقابر وإلى ضواحي المدينة.

في مثل هذه الظروف وقف الشيخ محمد يوسف أمير جماعة التبليغ بالعزيمة الصادقة لإسعاف المنكوبين وإمداد المشردين، معرّضا نفسه للخطورة وادي دورا بطوليا وكان شأنه في تلك الظروف

---

(١) الشيخ محمد يوسف الكاندهلوي ص: ٣١- ٥٣٠.

(٢) الشيخ محمد يوسف الكاندهلوي ص: ٥٣١.

الحالكة شأن أصحاب العزيمة من العلماء المجاهدين([1]).

وكان من أدعيته:

اللّهم أخرج اليهود والنصارى والمشركين من جزيرة الحبيب صلى الله عليه وسلم من جزيرة العرب.

اللّهم أخرج اليهودية والنصرانية والمجوسية والشيوعية والشرك من قلوب المسلمين.

اللّهم أيّد المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها "بالإمام العادل" والخير والطاعات، وإتباع سنن سيد الموجودات.

اللّهم أعز الإسلام والمسلمين في العرب والعجم، اللّهم أعل كلمة الإسلام والمسلمين في المملكة الهندية وغيرها من الممالك الملحقة([2]).

وهذا دليل على أنه كان يدرك أهمية السياسة والحكم ووجود "الإمام العادل" للمسلمين، وليس صحيحا أن جماعة التبليغ لا ترى السياسة من الدين نعم إنها ترى قبل الخوض في غمارها إصلاح المسلمين.

---

(١) سيرة الشيخ محمد يوسف الكاندهلوي ص: ١٦٩- ١٧١.

(٢) الشيخ محمد يوسف الكاندهلوي ص: ٥٨٢- ٥٨٣.

الاجتماع:

منهج جماعه التبليغ لا يضع خطوطا محددة للعلاقات بالقريب أو بالبعيد ولا توجد لدى أفرادها أي مشكلة عن مكانة المرآة في الإسلام، ولا توجد في قاموس جماعة التبليغ مصطلحات العناية بالشباب أو الطفولة أو الأمومة وما شابه ذلك.

فمكان المرأة هو البيت لتربية أولادها، وخدمة زوجها ولها أن تتلقى من العلم الشرعي ما يقيمها على دين الله وعليها الالتزام بما ورد في الكتاب والسنة من أوصاف المؤمنات القانتات، وعلى الرجال أن يلزمهن بالحجاب والاحتشام واقتفاء أثر الصحابيات، إلى جانب ذلك وتقيم الجماعة حلقات خاصة للنساء يخاطب فيها أحد الدعاة من وراء حجاب ويقرأ "فضائل الأعمال" بنفس الأسلوب المتبع في الجماعة للرجال، كما أن الجماعة تبيح الخروج للنساء برفقة محارمهن ويقمن بما يناسبهن من أعمال الدعوة في المنازل بين النساء.

أما الشباب فهم مثل الكهول والشيوخ بعد بلوغهم سن الرشد يجب عليهم أن يفكروا في حياتهم الأخروية ويتدربوا على الدعوة والخروج في سبيل الله، وتوجد المراكز المشهورة للجماعة في القارة الهندية عموما مدارس دينية تستقبل الشباب ليتعلموا وفق

المنهج العلمي المتبع في عموم القارة الهندية وهناك طلبة من جميع البلدان الإسلامية، والطفل أمانة في يد الوالدين عليهما مسؤولية تنشئتهم تنشئه دينية صحيحة.

الاقتصاد:

لا يشغل بال المسئولين في جماعة التبليغ التخطيط الاقتصادي للبلاد الإسلامية ولا التجربة المعاصرة للبنوك ولا يرون لمثل هذه الأمور أي دور في عزة الإسلام والمسلمين، إن اهتمامهم موجه إلى الإصلاح بالتربية والتذكير وشغل الناس بفكر الآخرة والحياة البرزخية في القبر، والحشر والنشر وهذا ينسجم مع رؤية الجماعة في أن المرحلة الحالية مرحلة إعداد جيل مستعد لأن يحكم بالإسلام فكما كاملا.

أما تجنب الربا فمسؤولية كل فرد أن يسارع في الإخراج عن ملكه كل ما جاءه من المال الحرام سواء كان من الربا أو من أية وسيلة أخرى.

وليس معنى ذلك أن أفراد الجماعة ليس لهم نشاط اقتصادي، بل الصحيح أنهم أذكياء في هذا المجال ومجموعة كبيرة من بينهم تجار مرموقون لهم أملاك وعقارات، وكبار التجار من أفراد

الجماعة هم يتنافسون في خدمة الدعوة دون طلب أو إيعاز رسمي من مركز الجماعة،وقاموس الجماعة يخلو من مصطلحات البنية الاقتصادية أو الفكر الاقتصادي الحديث وما شابه ذلك.

ومع إن الجماعة لم تفتح باب التبرعات ولا يوجد لديها صندوق أو ميزانية محددة ومعلنة، وتعطي الأهمية دائما لتفريغ الوقت والخروج مع الجماعة بدل تقديم المساعدة وبذل الأموال غير أن التجار الكبار من أعضائها يتحملون نفقات عقد الاجتماعات طواعية ونفقاتهم في الرحلات تكون ضئيلة يتحملها الخارجون من أجل الدعوة أنفسهم.

الحضارة الحديثة:

الحضارة الحديثة لدى الجماعة حسب تعبير أحد الكتاب "حذاء ينتعله المسلم لقضاء حاجته فإذا انتهت خلعه"(١) وهم قد يحتاجون أو يستعملون ما أنتجته الحضارة الحديثة من أدوات ووسائل تحقق غايتهم، أما نظريتها وفنونها وتقاليدها فهي عبث يجب على المسلم أن يتجنبها.

ولا يدخل في نطاق اهتمامهم بناء حضارة إسلامية تجمع بين

---

(١) رأي آخر في جماعة التبليغ ص: ٣٠.

الانجاز التقني والقيم الإسلامية إلا في حدود الدعوة إلى الله حتى تتحول مجتمعات الكفر إلى الإسلام كما تحقق في زمن الصحابة بالنسبة لحضارة الفرس والروم([1]).

ويجدر بالذكر أن أفراد الجماعة يلتزمون باستعمال السواك بدل الفرشاة واليد في الأكل دون الشوكة أو الملعقة دون أي غضاضة، وفي أي بلد من البلدان ولا يشعرون بأي حرج من المشي في الشوارع حاملي أمتعتهم على أكتافهم في أرقى مدينة من مدن العالم،ورفع الأذان وإقامة الصلاة ولو كانوا في الطائرة أو المطار أو القطار إذا حان الوقت من غير تأخير أو استحياء ولو في بيئة غير مشجعة.

التربية:

لعل من أهم ميزات الجماعة تأثيرها التربوي في نفوس من ينتمي إليها، يقول أشد ناقدي الجماعة محمد أسلم الباكستاني:

"السرّ في نجاح هذه الجماعة هو إخلاص رجالها وتفانيهم في

---

(١) يراجع كلمات مؤسس الجماعة ص: ١٢٥ في حث الزعيم السياسي المعروف محمد علي جوهر على عرض الدعوة الإسلامية بلغة انجليزية قوية ومؤثرة إلى الأوروبيين لتظهر إحدى النتيجتين: إما اهتداءهم إلى الإسلام أو إهلاكهم من الله سبحانه بسبب إعراضهم عن الدين الحنيف.

أمر الدعوة، ومثابرتهم وجهادهم في التبليغ ويقول: إن لهـــا دورا بارزا في إصلاح الناس فكثير منهم تابوا من فســـقهم وفجـــورهم ورجعوا إلى الخير بجهود هذه الجماعة"([1])

ومن المشاهد أن العصاة ومدمني الخمر والغارقين في الفسوق يخرجون مع الجماعة أياما فيتركون مألوفاتهم بل يتدربون بســـرعة مذهلة على إلقاء المواعظ الإصلاحية بين الناس.

والتوجيه عندهم يقوم على اللين دون القسوة وعلى البشارة دون الإنذار وعلى القدوة الحسنة، وهم على تعبيرهم لا يشـــيرون إلى القذى في أعين إخوانهم، ولا إلى المنكرات في تصرفاتهم ولكنهم يعطونهم المرآة ويوفرون لهم فرصة النظر فيها، وتفقـــد أحـــوالهم وإصلاح ما فسد منها([2]).

دور الجماعة في خدمة الإسلام:

مع بساطة وغرابة الأنشطة وأساليب جماعة التبليـــغ،وكثرة النقد الموجه إليها فقد أدت دورا كـــبيرا في إصـــلاح المنحـــرفين وتعويدهم على الحياة الملتزمة، بل وإخراج عدد كبير من الناس من

---

(١) رسالة الماجستير ص: ١، ٢.

(٢) رأي آخر في جماعة التبليغ ص: ١٦.

الكفر إلى الإسلام. يقول الشيخ سعد الحصين في خاتمة بحثه الذي كتبه للتنبيه على بعض أخطاء جماعة التبليغ:

ولقد اشتركت في استفتاء لمائة من خيرة المسلمين في أمريكا لاختيار عدد منهم دعاة وأئمة فلم أجد واحدا بينهم عرف الإسلام بواسطة كتاب إسلامي، أو محاضرة أو جماعة إسلامية أخري، أو هيئة رسمية للدعوة إلى الله أو أي جهة أخري من خارج المجتمع الأمريكي، ولكن نصفهم تقريبا دخل الإسلام عن طريق جماعة التبليغ، والنصف الآخر عن طريق جماعة البلاليين في أمريكا.

والسبب في رأيي أنهما وحدهما يعيشان الدعوة ويضحّيان من أجلها([1]).

بعض الملاحظات حول جماعة التبليغ:

إن الذين ينتقدون الجماعة هم كثيرون لكن الانتقادات لا تستند عموما إلى أي كتاب أو وثيقة خاصة بالجماعة، والمنتمون إلى الجماعة يعتبرونها نوعا من الافتراء عليهم، فهم لا يتكلمون حول القضايا العلمية مثل الاجتهاد والتقليد، ويرحبون بالشخص أيا كان انتماءه الفقهي أن يخرج معهم، فأمير جماعة التبليغ في

(١) رأي آخر في جماعة التبليغ ص: ٢٢.

الكويت وهو الشيخ راشد الحقان مالكي المذهب وليس حنفيا، وفي أمريكا يرأسهم أحد المهتدين الجدد من السود، كما أن بعض المنتمين إلى الجماعة يشرفون على المدارس الدينية في جنوب أفريقيا وبريطانيا والهند وباكستان وغيرها من البلاد، وأبرز ما يوجه إليهم من انتقادات هي:

١- تمسك الجماعة بالخطوة الأولى التي اتخذها المؤسس في مجتمع هندي وفي ظروف وملابسات خاصة وجعلها منهاجا لكافة الطبقات والشعوب وفي جميع أنحاء العالم وهذا يتنافى مع تصريح المؤسس الذي يقول:

"إن هدف الحركة هو تعليم المسلمين جميع ما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم هذا هو هدفنا الحقيقي، أما الرحلات الدعوية هذه فهي وسيلة بدائية لتحقيق هذا الهدف وإن تلقين إقامة الصلاة وتعليمها وتحقيق كلمة "لا إله إلا الله" فإنها بمنزلة الحروف الأبجدية من منهجنا الكامل، وإن هذه الرحلات والجولات تكفي فقط لإيقاظ الناس من غفلتهم وربطهم بأهل الدين ليقوموا بدورهم في توجيه الناس وإرشادهم الخ([1]).

---

(١) ملفوظات (كلمات مختارة) ص: ٣١.

وأن التوقف على الخطوة الأولى والجمود عليها غير صحيح حيث يشعر الإنسان المثقف بالفراغ بعد المشي بضعة أيام مع الجماعة، ويبقي الإنسان العادي في مكانه من الجهل عن أحكام الدين مع التزامه بالفروض والواجبات.

٢-الاعتماد على الروايات الضعيفة في فضائل الأعمال غير صحيح، وفي الروايات الصحيحة غنى عنها، وليت الجماعة اكتفت بكتاب رياض الصالحين فقط للعرب والعجم جميعا أو أسقطت الروايات التي حكم عليها مؤلف كتاب "تبليغي نصاب" نفسه بالضعف والوضع في هامشه باللغة العربية، وإن تغيير اسم الكتاب مؤخرا يبشر بخير ويعتبر خطوة في الاتجاه الصحيح.

٣-عدم الاهتمام بالعلم مع التأكيد عليه في الأصول الستة غير محمود ويمكن تحديد منهج لتثقيف الدعاة مع تجاوز مخاوف الفرقة والاختلاف التي منعت القائمين عليها من تعليم الأحكام، وان عدم تحديد الحد الأدنى من الثقافة الدينية للمتكلمين في الجماعة يضر أكثر مما ينفع، قد يوجه هذا النقد للعاملين في الجماعة في غير القارة الهندية، وإلا فجميع مراكز الدعوة في القارة الهندية وفي الدولة

الأوروبية كلندن وفي جنوب أفريقيا فيها مدارس للعلم يحرص المنتمون للجماعة على انتظامها وتطويرها.

٤-السكوت في الأزمات السياسية وإن كان يضمن الاستمرارية لعدم حدوث مشاكل وعقبات في سبيل انتشارها، غير أن النهي عن المنكر ولو كان بأسلوب حكيم من واجبات المسلم، وإن عدم توجيه الناس في هذا المجال قد يسبب متاعب أخرى بسبب عشوائية الاتجاه لدى عامة الناس وجماهيرهم سواء كانوا من المنتمين إلى الجماعة أو غيرهم، ومن الملاحظ أن تجنب الجماعة الكلام في السياسة لم يحل دون إقامة الحظر عليها في بعض الدول العربية، كما أن الجهات الاستخباراتية في بعض الدول الأخرى لم تبرئ ساحة جماعة التبليغ من أنها أيضا تشكل خطورة للحكومات القائمة لأنها تنادي بعودة المسلمين إلى أسلوب الصحابة رضي الله عنهم في الحياة، وتهيئ الأرضية للمتدينين المتشددين.

٥-إن عدم مراعاة مقتضيات العصر لا يكون في صالح الدعوة دائما، فانه من ناحية يعطي الثقة بالنفس للمنتمين إلى الدعوة بأنهم يستطيعون العيش مع البساطة رافضين كل

أدوات الحضارة، غير أنهم من ناحية ثانية ربما يشكلون حاجزا أمام كثير من الذين يرغبون في التقرب إلى الإسلام من المنبهرين ببريق الحضارة العصرية.

ونرى أن جماعة التبليغ باعتبارها إحدى الحركات ذات شعبية كبيره في بعض البلاد، لها نشاط متواصل في جميع أنحاء العالم بإمكانها أن تؤثر في الإصلاح رغم بساطتها في الأسلوب والمنهج، بل قد يكون نفوذها أهم وأكثر لابتعادها عن جميع مظاهر العنف وعدم وجود الحساسية نحوها لدى السلطات السياسية عموما، وهي في هذه المرحلة تحتاج على حد تعبير أحد معجبيها والمطلع على أسرارها: "إلى تعديل بسيط وزيادات كثيرة حتى تؤدي دورها المنشود في عالمنا المعاصر"(١).

يقول الدكتور تقي الدين الهلالي المراكشي السلفي المعروف الذي عاش في ثلاثينيات القرن الماضي في الهند، وكان يحتكم إليه في اللغة العلامة رشيد رضا المصري والأمير شكيب أرسلان إذا وقع الخلاف بينهما وهو من أرشد تلاميذ المباركفوري في الحديث، وأستاذ الشيخ أبي الحسن الندوي في اللغة العربية.

---

(١) الندوي في ترجمة حياته "كاروان زندكي" ج ١ ص: ٣١٥، (أو مسيرة الحياة)

يقول متحدثا عن رحلته إلى أفغانستان:

"جماعة مولاي إلياس، وهي جماعة مشهورة في الهند عندها شيء من التصوف، يطوف رجال هذه الجماعة في جميع أرجاء الهند وفي أوروبا وأمريكا وأفريقية، وكانوا يزورون المغرب في كل سنة يدعون الناس إلى قول: لا إله إلا الله والمحافظة على الصلاة وهم موجودون هنا في المدينة أيضا، ومن عادتهم أنهم لا يقبلون من أحد من أهل البلدان التي يزورون شيئا، لا مالا ولا طعاما إلا إذا تحققوا أن من قدم لهم ذلك الطعام من أهل العلم والصلاح وإخلاص النية لله،وكان يخرج معهم بعض إخواننا السلفيين إلى القرى والبوادي للدعوة.

ويقول:

وحضرت مجالسهم في بشاور، وكانوا يجتمعون كل يوم جمعة بعد العصر في بيت أحدهم، وما عندهم لا رقص ولا غناء ولا ذكر مشتمل على بدعة.

يقرأ كل واحد منهم ما تيسر من القرآن في المصحف ثم يترجمه إلى لغة يفهمها الحاضرون إما إلى لغة الأردو

أو الفارسية أو الإنكليزية.

وأنا لا أمنع أصحابنا من مرافقتهم أنما أحذرهم من الصلاة في المساجد المبنية على القبور، وآمرهم بإنكار الشرك والبدعة كلما رأوا شيئا من ذلك"(١).

نشاط جماعة التبليغ داخل الكويت:

بدأ نشاط جماعة التبليغ في دولة الكويت بين الوافدين من شبه القارة الهندية على نطاق محدود في عام ١٩٤٨ بجهود من عمال شركة النفط بمنطقة الأحمدي ولم يلتفت إليه المواطنون إلا في بداية الستينيات، وبدأ بعض الكويتيين يسافرون إلى مركز جماعة التبليغ في الهند وأول من قام بزيارة الهند هو الشيخ راشد الحقان والشيخ عبد الرزاق المصري بمرافقة الشيخ مرشد المديني، وكان ذلك سنة ١٩٦٤ والتقى في هذه الرحلة بالشيخ محمد يوسف الكاندهلوي مؤلف كتاب "حياة الصحابة" وأمير الجماعة بعد وفاة والده المؤسس، ونظم قصيدة طويلة ذكر فيها تفاصيل منه وكان مما زاره مدرسة ندوة العلماء والتقى بشيخها أبو الحسن الندوي، وكذلك في باكستان كما أن أفراد جماعة التبليغ بدؤا يتوافدون إلى

---

(١) الدعوة إلى الله في أقطار مختلفة للمراكشي ص: ٢٥٨.

الكويت على نطاق محدود ولكن بشكل متواصل.

وكان على رأس الجماعة الشيخ عبد الباسط من الجالية الباكستانية وأصبح مسجد عمر بن عبد العزيز في منطقة الأحمدي مقرا لاجتماع أفراد الجماعة الأسبوعي كل يوم الخميس.

كما أن السيد/ ناصر الجبري بنى لهم مسجدا في منطقة خيطان الجديدة فأصبح مقرا لاعتكافهم، وملجأ لاجتماعاتهم، بالإضافة إلى مسجد الأحمدي، وانضمت مجموعة من الشخصيات البدوية والحضرية إلى الجماعة، يشاركون في الجولات المسائية المعتادة والاجتماعات الأسبوعية وظل العمل يتزايد بين الجاليات الوافدة العربية وغير العربية لما يوجد لديهم من فراغ.

وقد انضم إلى الجماعة السيد/ راشد الحقان من أهل الفنطاس وبرز في جهوده الدعوية فاختير أميرا للجماعة وانتشر العمل في الكويت وفي المملكة العربية السعودية وازدادت الجماعات الزائرة للكويت، والخارجة منها إلى أقطار العالم المختلفة، علما أن عددا من أفراد الأسرة الحاكمة في دولة قطر وكذلك دولة الإمارات العربية المتحدة يشاركون في أنشطة الجماعة ويحضرون في بعض الاجتماعات في الكويت وخارج الكويت.

وعلى فترات متقطعة تعقد الجماعة اجتماعات سنوية موسعة

يشارك فيها بعض الشخصيات من الهنـــد أو باكســـتان وتـــنظم محاضرات عامة.

وقد جرت العادة أن وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية هي التي تقوم باستخراج تأشيرات الوفود الزائرة والجماعة كضـــيوف على الوزارة، علما بأنهم يتحملون مصاريف سفرهم على نفقتهم الخاصة ويلتزمون بالرجوع إلى بلادهم بعد المدة المحددة لأنشطتهم داخل الكويت.

وقد خصصت الدولة بواسطة الأمير الراحل الشـــيخ جـــابر الأحمد الصباح رحمه الله أرضا واسعة لبناء مسجد كبير مع أجنحة ومرافق وقاعات لعقد الاجتماعات وسكن الوفود الدعوية الزائرة وأداء الأنشطة الخاصة بالجماعة في منطقة صبحان الصناعية.

كما إن الجماعة نالت رعاية كريمة من سمو الأمير الراحـــل الشيخ جابر الأحمد الصباح رحمه الله في بنـــاء المســـجد الخـــاص بالجماعة في منطقة صبحان.

ويكون المركز عامرا بالمنتمين إلى الجماعة من المواطنين ومن أفراد الجاليات.

والجماعة لا تتوقف عن أنشطتها الدعوية، كما أن كثيرا من الكويتيين يشاركون في اجتماعات جماعة التبليـــغ في باكســـتان

وبنغله ديش والهند، وقد شارك هذا العام في اجتماع بنغله ديش نحو مائتي كويتي إلى جانب الجنسيات الأخرى، ويقدر عدد المشاركين في تلك الاجتماعات بنحو مليونين إلى ثلاثة ملايين شخص من غير أي إعلان في الجريدة أو استخدام أي وسيلة إعلامية معهودة.

وتقتصر أنشطة الجماعة بربط الناس بالمساجد وبث الوعي الديني فيهم من خلال منهج جولات تربوية لمدة ثلاثة أيام أو أربعين يوما أو أربعة شهور أو أقل أو أكثر.

ويقتصر عمل الجماعة على البيان وحث الناس على المواظبة على الصلاة وتذكار حياة الصحابة، والمساجد هي مكان أنشطة الجماعة من صلاة وأذكار ومواعظ ويكون الإقبال الجماهيري كبيرا وخاصة في صفوف أفراد الجاليات الوافدة, وهناك نشاط تنظيم المواعظ والمحاضرات للنساء داخل بيوت المنتمين إلى الجماعة.

وتبتعد الجماعة عن أي نشاط سياسي أو حديث خارج مناهجها المعتادة فتمارس نشاطها بعيدا عن الشبهات أو الإثارات.

ولا يوجد لدى الجماعة نظام العضوية أو توزيع الاستمارات أو حفظ الأسماء في السجلات فلا يمكن تحديد عدد المنتمين إلى الجماعة أو المتفقين معها بشكل دقيق، حيث إن بابها مفتوح

للجميع ويتم ضبط أمور الوفود الزائرة، وكذلك الجماعات الـــتي تخرج إلى مساجد مختلفة من خلال مجموعة من المرتبطين القـــدامى بالجماعة وهم يعتبرون أعضاء مجلس الشورى الخاص بإدارة شئون الجماعة ولا توجد للجماعة ميزانية محددة معتمدة ولا مكاتب ولا موظفين ولا رواتب بل على من يريد الالتزام بالجماعة أن ينفق على نفسه من وقته وماله، ويفيد بعض النشطاء من أفراد الجماعـــة أن أسماء الدعاة الناشطين أو الأحباب المواظبين في كل مسجد مسجلة في أوراق ويقدر عدد المساجد التي فيها نشاط للكويتيين بنحو ٦٠ مسجدا، والخاص بالوافدين بنحو ٤٠٠ مسجد، وإجمـــالي عـــدد المنتمين إلى التبليغ في الكويت بنحو ثلاثة آلاف شخص.

وإن أمير الجماعة في الكويت الشيخ راشد الحقـــان يحظـــى باحترام الجميع وهو شيخ كبير في السن مـــن ســـكان منطقـــة الفنطاس، وهو يتواجد في مسجد الدعوة بصبحان جل الوقـــت، وأطلقت وزارة الأوقاف اسمه على المسجد تكريما له، ويشاركه في العمل الدكتور إبراهيم الرفاعي والدكتور علي الهديب وآخـــرون ومجموعة من شخصيات بدوية وحضرية ومن ثقافات وتخصصات مختلفة. والله هو ولي التوفيق،،،

المراجع:

١- الداعية الكبير الشيخ محمد إلياس الكاندهلوي - للشيخ أبي الحسن علي الندوي (طبعة المركز العربي للكتاب الشارقة)

٢- مسيرة الحياة (كاروان زندكي) //

٣- مذكرات سايح في الشرق العربي //

٤- الموسوعة الحركية فتحي يكن

٥- موسوعة الأديان والمذاهب المعاصرة - الغدوة العالمية للشباب الإسلامي

٦- ترجمة حياة الشيخ محمد يوسف الكاندهلوي - الشيخ محمد الثاني الندوي

٧- حياة الصحابة -الشيخ محمد يوسف الكاندهلوي

٨- فضائل الأعمال - الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي

٩- رأي آخر في جماعة التبليغ - سعد الحصين

المحتويات

العنوان	الصفحة
نحو تحقيق وحدة الأمة الإسلامية	٥
العالم الإسلامي – المشكلات والحلول	٣٥
قضية فلسطين وأبعادها السياسية والجغرافية	٧٢
المنهج السلفي وصلته بالخطاب الديني المعاصر	٩٧
الجماعة الإسلامية في شبه القارة الهندية - نشأتها ومنهجها في التفكير والعمل	١٢٦
جماعة التبليغ - مبـــادئ وأهـــداف	١٥٧